أنثى بنكهة الكراميل

د. مصطفى عمر الفاروق

أنثى بنكهة الكراميل / سيرة روائية

د/ مصطفى عمر الفاروق

الطبعة الأولى ٢٠١٠

تصميم الغلاف : الفنان/ مصطفى نوبي

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٢٠١٦

الترقيم الدولي : ٢-٠٧٤-٤٨٨-٩٧٧-٩٧٨

أنثى بنكهة الكراميل

"سيرة روائية"

د. مصطفى عمر الفاروق

الطبعة الأولى ٢٠١٠

مستوحاة من قصة حقيقية

الجزء الأول

الورم ينقذها من التعاسة !

عبرت بوابة العيادة الخارجية بعد أن ألقيت التحية على الحارس .. الوقت لا يزال مبكرا .. عدد غير قليل من المرضى يتزاحم عند شباك التذاكر .. اخترت مقعدا في ركن هادىء تدفئه الشمس .. أغمضت عيني .. وتركت نفسي لنوع من الخدر اللذيذ الذي يسري في عروقي بفعل أشعة الشمس ..

يقول المحللون النفسيون إن أحلام اليقظة تطارد الأطباء طيلة الوقت .. خاصة حديثي التخرج أمثالي .. بالأمس راودني حلم غريب .. رأيتني جالسا في أحد المطاعم الفاخرة .. إلى طاولة عامرة بما لذ وطاب .. الموسيقى الحالمة تنبعث من أركان المطعم فتبعث في أطرافك الشعور بالإسترخاء .. وفجأة .. تنطلق صرخة مذعورة، إثر سقوط جسم على الأرض .. يتساءل أحد الموجودين بصوت عال إن كان بين الحضور طبيب .. أتقدم في ثقة إلى حيث الجسد المسجى .. أتحسس النبض .. بينما تخبرني زوجته أنه يعاني من تصلب في شرايين القلب .. أطلب سكينا وثمرة طماطم طازجة .. أشق الصدر بالسكين .. ثم أنتزع القلب المنهك بعد أن أفصله عن الأوعية الدموية المتعلقة به .. وأضع مكانه ثمرة الطماطم .. لأبدأ بعدها في توصيل الشرايين والأوردة بالقلب الجديد الطازج .. و........!!

عند هذه النقطة ينتهي الحلم .. دون أن أكمل الوجبة الفاخرة التي كانت تنتظرني ؟!

لم أقص الحلم على أي من زملائي أطباء الامتياز .. حتى لا أصبح موضع تندرهم .. خاصة "مها" .. التي يهمني أن أظهر أمامها دائما في صورة الشاب المتزن الذي لا يجد الآخرون أية فرصة للسخرية منه.

نظرت في ساعتي .. الثامنة والربع .. تحركت في تكاسل .. إلى مكتب الحضور والإنصراف لأضع الكارت الخاص بي في الساعة .. قبل أن أرتدي البالطو .. وأدخل إلى قلعتي المقدسة .. عيادة الجراحة العامة .. ألقيت تحية الصباح على الست "زينب" رئيسة حكيمات العيادة .. فردت كعادتها في برود .. يوما ما عندما أصبح مدرسا أو أستاذا مساعدا ستتعلم كيف تحترمني .. فأنا الآن في نظرها لست سوى طالب امتياز ينحصر عمله في مرافقة النواب للتعلم منهم .. ونقل أكياس الدم .. والتسكع في أروقة المستشفى من حين إلى حين .. و ...

لاحقني صوتها وأنا أهم بدخول غرفة الكشف .. نعم يا ست الحكيمة .. ماذا تريدين على الصبح؟

- الدكتور "كريم" نائب الجراحة العامة .. يريدك أن تحدثه هاتفيا.

- خير ؟ .. ماذا يريد ؟

- لا أعلم.

اتصلت بهاتفه المحمول، وأنا أتساءل عما تراه وراء هذه المكالمة .. أخبرني أنه هو والدكتور "شاكر" مدرس الجراحة العامة لن يستطيعا الحضور اليوم، وإذا استطاع أحدهما أن يحضر فسيكون ذلك قرب انتهاء عمل العيادة

الخارجية .. ما المطلوب مني إذن ؟ .. المطلوب أن أقوم أنا بالكشف على الحالات وعمل اللازم .. ويمكنني الإستعانة بالدكتور "عزت" نائب جراحة المسالك إذا استعصت عليّ بعض الحالات!

تتسارع نبضات قلبي وأنا اضغط زر إنهاء المكالمة .. فجأة تجد نفسك مسئولا عن عيادة كاملة وأنت طبيب لم يمض عليه في الممارسة الفعلية سوى بضعة أسابيع .. شعرت أن كل ما درسته في السنوات الست الماضية قد تلاشى .. تبخر .. وأن محاولاتي للتشخيص اليوم ستبوء كلها بالفشل .. وسأصبح حديث الكل .. المرضى قبل الأطباء ..

لا بد أن أتمالك نفسي .. لماذا أسبق الأحداث .. قد تكون حالات اليوم سهلة .. ثم إن هذه المواقف هي التي تصنع الطبيب الماهر لما فيها من التحدي .. وهي فرصة مواتية لأثبت أمام مها أنني من أمهر طلبة الدفعة .. وقد يزداد إعجابها بي عندما أروي لها ـ فيما بعد ـ أحداث اليوم ..

بدأتْ أنفاسي المتسارعة تهدأ .. وطلبت من "شكرية" ـ التي نلقبها بـ "شاكيرا" ـ أن تحضر لي فنجال الكابيتشينو المعتبر الذي تتحفني به كل صباح .. بعدها جلست خلف المكتب وضغطت زر الجرس الموجود في الحائط خلفي .. لتدخل الست زينب والخير معاها ياما .. حزمة من الكروت .. تجاوز عددها الأربعين .. طلبت إليها البدء في إدخال المرضى ، فالمدرس والنائب لن يحضرا اليوم، وأنا الذي سأقوم بالمهمة .. أومأت برأسها في تردد .. كأنما لا تصدق أنني سأكون اليوم الكل في الكل!

ودخلت الحالة الأولى ...

رجل في أواخر الأربعينات من العمر .. يرتدي جلبابا .. يتوكأ على ذراع مرافق معه .. قرأت اسمه لأتأكد من صوابه .. بتشتكي من إيه يا عم "جابر" .. آلام في منطقة العصعص والحوض .. وبدأ في رفع الجلباب عن ساقه اليمنى .. لأفاجأ بالتورم المنتشر على الناحية الخارجية للفخذ .. كأنما هناك سائل ما يتجمع تحت الجلد ليمنح فخذه هذا المنظر المنتفخ ..

- منذ متى؟

- ثلاثة أيام ..

- هل عانيت من حمّى .. رعشة .. غثيان .. قيء؟

- لا يا دكتور ..

وتدخل مرافقه ليقول:

- لقد دخل المستشفى منذ أسبوعين بعد أن صدمته دراجة نارية .. أصيب على إثرها بعدة كسور في الضلوع .. لكنه خرج بعد أربعة أيام مع تعليمات مشددة بالراحة وعدم الإنفعال والإلتزام بمواعيد الدواء ..

هذه حالة عظام إذن .. لقد أخطأ بقدومه إلى هنا .. لكنني مع ذلك طلبت منه أن يتمدد على سرير الكشف .. فقد يكون هناك شيء لا علاقة له بالعظام .. بدأتُ الخطوات المعتادة .. قياس الضغط .. ١٣٠ على ٧٠ .. ضغط الإرتخاء منخفض قليلا .. راقبت صدره لأحصي عدد الأنفاس في الدقيقة .. تبدو أنفاسه لاهثة إلى حد ما بسبب كسور القفص الصدري .. النبض .. ٨٩ نبضة في الدقيقة .. سريع قليلا .. بدأت أتسمع صدره .. الناحية اليمنى .. اليسرى .. ثم منطقة البطن .. لا توجد أصوات غير طبيعية .. أمرته أن يحرك قدميه في عدة اتجاهات .. مع مقاومة متوسطة من يدي .. ساقاه سليمتان .. هذا التورم لا علاقة له بقوة العضلات ولا يؤثر

إطلاقا على التوافق العضلي العصبي .. ما سببه إذن ..
تحسست التورم ببطء مرة أخرى .. وأنا اعتصر ذهني ..
الرجل لا يعاني من أي تنميل في الأطراف أو عجز في
الحركة .. ما هذا الذي أواجهه إذن ؟ .. ثم سطعت الإجابة
في ذهني فجأة .. تراه يكون كسرا .. إصابة متخفية .. تلك
التي يطلقون عليها: إصابات ترتدي القفازات (Degloving
Injuries) .. حيث لا تكتشف في الفحص الأولي .. لعدم
وجود أعراض ظاهرة .. أو لانشغال الطبيب المشخص
بمشكلة أخرى .. وهو ما حدث في هذه الحالة .. لقد انشغل
الطبيب بكسور القفص الصدري .. ونسي أن يفحص منطقة
الحوض جيدا .. الآن تعلن الإصابة عن نفسها بما تحدثه من
آلام في الحوض .. وبالتورم المنتشر في الفخذ ..

- خير يا دكتور ..
- اشتباه كسر في الحوض ..

أطل القلق من عينيه .. فقلت مشجعا:

- لا تقلق يا عم جابر .. المطلوب منك الآن أن تعمل أشعة
مقطعية على منطقة الحوض قبل أن نجزم بأي شيء .. لذا
فسأحولك إلى عيادة العظام لعمل اللازم ..

وسلمته الكارت بعد أن كتبت فيه طلب التحويل ومهرته
بتوقيعي .. ضغطت زر الجرس لتأذن الممرضة للمريض
التالي بالدخول ..

فتاة جميلة .. بصحبة شاب نحيل .. دعوتهما للجلوس ..
لتبدأ الفتاة في الحديث .. أخبرتني في حرج والقلق يطل من
عينيها أنها اكتشفت كتلة في ثديها الأيمن .. وهي تخشى أن
تكون - لا قدر الله - ورما .. حاولت أن أطمئنها قائلا:

- ٨٥ % من كتل الثدي ليست سرطانية.

طلبت منها أن تتمدد على سرير الكشف .. وأنا أسألها:
- كم عمرك ؟
- ٢٤ عاما ..
- هل توجد إفرازات من الثدي ..
- لا ..

جذبت الستارة من خلفي قبل أن أطلب إليها أن تكشف منطقة الصدر وأن تضع يدها اليمنى تحت رأسها لتكشف منطقة الإبط .. لا يوجد أي تغيير في شكل ولون الجلد أو الحلمة .. ضغطت بأصابعي فوق مكان الكتلة لأكتشف أنها مثل المطاط وتتحرك عند الضغط عليها ..

- هل تشعرين بألم عند الضغط ؟
- لا ..
- هل يزداد حجم الورم مع نزول الدورة؟

أجابتني بالنفي .. أستطيع الآن أن أستبعد مرض الثدي الليفي التكيسي (Fibrocystic Changes) .. تحسست منطقة الإبط لأتأكد من خلوها من أي تورم .. حيث إن بعض أورام الثدي السرطانية لا تكتشف إلا بعد انتشار الخلايا السرطانية إلى العقد الليمفاوية في منطقة الإبط ..

- تدخنين؟
- لا ..

قالتها بتردد مما جعلني أشك في صدقها ..

- تتناولين حبوب منع الحمل؟
- أنا لست متزوجة!

وأشارت في اتجاه الشاب المنتظر خلف الستارة :

- نحن مخطوبان.

أشرت لها لترتدي ثيابها .. عدت لمجلسي خلف المكتب .. انتظرت حتى انتهت قبل أن أسألها:

- هل سبق إصابة أحد أفراد العائلة بسرطان الثدي؟

ترددت قليلا قبل أن تجيب:

- أختي .. منذ سنتين تقريبا .. وقد أجرت جراحة لإستئصاله ..

هنا تدخل الشاب في الحديث:

- لم أعرف!! ... أختك مصابة بسرطان الثدي؟

- كانت ..

- ولكنك لم تخبريني يا "بثينة" ؟

- لم تكن هناك مناسبة للحديث .. ثم هذا أمر يخص أختي فقط ..

- بل يخصنا نحن أيضا .. هذا المرض وراثي .. وقد ينتقل لأبنائنا .. أليس كذلك يا دكتور؟

أومأت برأسي أن نعم .. لأفاجأ بعدها بمشهد يصعب توقعه .. رأيته يخلع الدبلة في عصبية ويضعها إلى جوار خطيبته وسط نظرات ذهول أطلت من عينيها، ودهشة كست وجهي ..

- لا أستطيع الارتباط بفتاة تنتمي لأسرة ينتشر فيها المرض الخبيث ..

وانصرف تاركا لها الألم والدموع .. كأنما يتلمس الفرصة ليقطع علاقته بها .. صحيح أن إصابة أختها تزيد من احتمالية إصابتها هي أيضا بالسرطان .. لكن لا يمكن الجزم بهذا إلا بعد إجراء الفحص الثلاثي الشهير .. الاختبار اليدوي .. الفحص بالأشعة السينية .. ثم بأخذ عينة جراحية (Needle Biopsy) ..

فكرتُ في الموقف من زاوية أخرى .. ماذا لو اتضح أنها مصابة فعلا بسرطان الثدي مع التداعيات المعروفة ؟! .. من حقه ألا يقضي حياته مع امرأة مشوهة الجسد .. ولكن هي .. ما ذنبها ؟ .. موقف محير حقا !! ..

لم أعرف ماذا أفعل لأساعدها على تجاوز هذا الموقف .. خرجت من فمي بعض كلمات المواساة على غرار: "لا تنظري إلى نصف الكوب الفارغ .. هو لا يستحقك .. كل شيء قسمة ونصيب" .. إلى آخر تلك العبارات التقليدية ..

لم تعلق بشيء .. فقط ألقتْ بالدبلة في حقيبتها .. مسحتْ آثار الدموع .. قبل أن تسألني عن الخطوة التالية ..

أجبتها بابتسامة مشجعة:

- الخطوة التالية أن تنتهي سريعا من إجراءات دخولك للمستشفى لبدء الفحوصات في أقرب فرصة لنقرر بعدها الإجراء المناسب ..

تسللت ابتسامة خجلة إلى شفتيها .. قبل أن أكتب لها في الكارت تصريحا بدخول وحدة الجراحة العامة رقم ٢٩ بمبنى منيل بحري ..

- انتظريني عند باب القسم بعد انتهاء الإجراءات.

من جديد أضغط زر الجرس ليدخل المريض التالي ..

حاولت أن أبعد بثينة عن ذهني .. لكن صورتها والدموع تفر من عينيها ظلت تطاردني .. ترى هل يتسرب ذلك المرض اللعين ليترك بصمته على جسد تلك الفتاة الجميلة ؟! .. ومر الوقت وتتابعت الحالات .. دون أن أفلح في إخراج صورتها من ذهني .. حتى جاء ميعاد إغلاق العيادة الخارجية .. لأنطلق من فوري إلى الوحدة ٢٩ .. وجدتها واقفة أمام إحدى النوافذ المنتشرة في الرواق الطويل .. كانت

ساهمة وآثار الدموع ما تزال واضحة فوق خديها .. اقتربت منها وقلت في صوت خافت:

- مستعدة ؟

أومأت برأسها أن نعم .. لندخل بعدها العنبر لبدء الخطوة الأخيرة في إجراءات الدخول .. وغادرت العنبر بعد أن أوصيت إحدى الممرضات لتهتم بها ..

* * *

لم يكن تقرير الأشعة السينية - الذي استلمته في اليوم التالي - قاطعا .. نظرت إلى الكتلة ناصعة البياض الظاهرة في الفيلم .. كانت أقرب إلى الشكل البيضاوي منها إلى الدائري .. دققت النظر في حافة الكتلة لأقرر ما إذا كانت محددة وواضحة أم لا .. هذه نقطة هامة للتفرقة بين الورم الحميد والخبيث .. لكنني لم أستطع ترجيح إحدى الكفتين .. لا بد أن انتظر مرور الدكتور "عفت حسني" رئيس الوحدة ليقرر ما هية تلك الكتلة بالضبط.

نظرت في ساعتي .. أحتاج الآن لتناول فنجال قهوة من يد عم "مصطفى" الذي يعمل بكافتيريا أعضاء هيئة التدريس .. ترى هل سأجد مها هناك؟ .. لم أرو لها بعد تفاصيل أحداث الأمس .. دخلت الكافيتيريا ليحييني عم مصطفى بابتسامته التي يحبها الجميع .. بدأت عيناي بعدها تمسحان المكان .. حتى عثرت عليها .. لكنها للأسف لم تكن وحدها .. شعرت بإحباط فجلست إلى أقرب طاولة متاحة .. لا أمتلك الجرأة الكافية لأفتح معها حوارا وسط أربعة أزواج من العيون تحدق بنا .. ربما أترك الأمر لفرصة أخرى ..

* * *

وفي صباح اليوم التالي، مر الدكتور عفت مرورا سريعا على مرضى وحدته .. استبعدَ أن تكون حالة بثينة ورما سرطانيا .. ولكنه عندما علم بإصابة أختها ، قرر إزالة الكتلة عن طريق عملية الخزع الإستئصالي (Surgical Biopsy) .. هذا هو الحل الأدق؛ لتحديد نوعية خلايا الورم.

حدد الدكتور "ضياء" ـ نائب الوحدة ـ ميعاد العملية .. بعد ثلاثة أيام .. وعلى عكس ما كنت أتوقع .. كانت الفتاة متماسكة وتحسنت حالتها النفسية كثيرا. قالت وهي تتجه برفقة الممرضة لتعدها لدخول غرفة العمليات:

ـ لقد استمعت لنصيحتك .. نظرت إلى نصف الكوب المملوء ..

وأضافتْ وابتسامتها تشرق على وجهها :

ـ أنا سعيدة بما حدث .. لأنه كشف لي حقيقة الإنسان الذي كنت سأتورط معه بقية عمري .. لقد أنقذني الورم من حياة تعيسة ..

بدأتُ أستعد أنا الآخر لحضور العملية .. ارتديت زي الجراحة الأخضر .. وانطلقت إلى غرفة العمليات .. رائحة البنج المحببة تفعم المكان .. بثينة ممدة على سرير الجراحة .. وقد بدأ المخدر مفعوله لتسقط في عالم اللا وعي.

وبدأتْ أصابع الدكتور عفت تؤدي رقصة المشرط في اللحم الحي .. هذا الرجل بارع حقا .. لم يستغرق سوى عشر دقائق .. لكنه أبقى الجرح مفتوحا حتى يعرف نتيجة تحليل عينة الورم .. التي أرسلتها الممرضة إلى قسم الباثولوجي .. كنت أنظر إلى هاتف غرفة العمليات في ترقب كأنما

أستنطقه .. سيتصل مدرس الباثولوجي في أية لحظة ليخبرنا بالنتيجة .. دعوت الله أن تكون النتيجة سلبية .. و ...

أخرجني رنين الهاتف من خواطري .. لتهرع الممرضة إليه .. بدا الاهتمام على وجهها وهي تستمع للطرف الآخر، قبل أن تضع السماعة .. لتنهي إلينا نتيجة التحليل السلبية ... لتهدأ بعدها أنفاسي .. ويبدأ الدكتور عفت مستعينا بجراح التجميل في إغلاق الجرح، لتنطوي بذلك صفحة مشحونة في حياة بثينة ..

* * *

لم أزرها إلا في اليوم الثاني بعد العملية .. كانت شاحبة الوجه .. طلبت ملفها لأراجع قياساتها الحيوية .. ضغطها منخفض قليلا .. لم يقلقني سوى شكوتها من تنميل في ذراعها الأيمن .. وضعت سبابتي في راحة يدها وأمرتها أن تغلق قبضتها عليه بقوة .. ثم قارنتها بقوة قبضتها اليسرى .. لأجد الفرق كبيرا .. أحيانا تتأثر أعصاب الطرف العلوي بعد استئصال أورام الصدر .. ستحتاج إلى كورس مكثف من فيتامين "ب" المركب، وربما بضعة جلسات من العلاج الطبيعي (Physical Therapy) لتحفيز الأعصاب وتقوية العضلات .. دونت ملاحظاتي .. وهممت بالانصراف .. لكنها استوقفتني:

ـ ممكن رقم موبايلك يا دكتور؟

وجدتني مدفوعا لمراوغتها:

ـ وفيم حاجتك إليه؟

ـ لأطلعك على تطورات حالتي ..

قلت بابتسامة:

- يمكنك المتابعة معي في العيادة الخارجية ..

ولم أخبرها أنني سأنتقل إلى عيادة الطوارىء الشهر القادم ..

عكر الضيق ملامحها للحظة لكنها استعادت ابتسامتها بسرعة . لم تجد ما تواصل به الحوار .. مدت يدها تسلم عليّ .. احتضنتْ كفي فترة أطول من اللازم .. خلصتُ يدي منها وأنا أقول بابتسامة مرتبكة:

- أراك على خير ... سلام ...

غادرت الوحدة وأنا لا أزال أشعر بملمس بشرتها الناعمة .. واقتحمتْ ذهني صورتها وهي ممدة على طاولة الجراحة ونصفها العلوي عار .. كان جسدها مثيرا للغاية .. حاولت طرد هذا الخاطر من ذهني لكن صورة الجسد المثير ظلت تلاحقني .. أنقذتني رنة قصيرة من جهازي المحمول .. كانت مها قد اعتادت أن ترسل لي "رنة" بين الحين والآخر .. وكانت قد وضعت شفرة لهذا التواصل .. فلو "رنّتْ" مرة واحدة فهي تقول لي: "أحبك" .. ولو "رنت" مرتين متتاليتين فإنها تعني: "بموت فيك" .. وهكذا .. و ... لم لا أذهب إلى زيارتها في وحدة الغسيل الكلوي حيث تمضي هذا الشهر هناك .. اشتريت علبة عصير الموز باللبن الذي تحبه .. وطلبت من "عصام" - زميلي في الإمتياز - أن يغطي غيابي ريثما أعود ..

* * *

كانت مشغولة بالإشراف على توصيل جهاز تنقية الدم (Heamodialysis Machine) لذراع امرأة عجوز .. حييتها بإشارة من يدي، فأشارت لي كي اقترب .. قبل أن "تخطف" مني علبة العصير لتشرع في شربه على الفور

باستمتاع طفولي، والعجوز تتابعها بابتسامة هادئة .. ثم قدمتني قائلة:

- "يوسف نبهان" .. أحد الأطباء التائهين في سراديب قصر العيني.

ونظرتْ إلى العجوز الباسمة مواصلة:

- "ليليان وجدي" .. سيدة مجتمع وصاحبة واحد من أشهر الصالونات الثقافية بوسط البلد .. وكانت جارة وصديقة حميمة لجدتي رحمها الله ..

ابتسمتُ مجاملا:

- تشرفت بلقائك يا سيدتي.

- نادني : ليليان.

ونظرتْ إلى مها تستحثها على البدء في عملية تنقية الدم .. فتأكدت مها من إحكام القناتين المتصلتين بالناسور الشرياني الوريدي (Arteriovenous Fistula)، ثم ضغطت زر التشغيل ليبدأ الجهاز في ضخ الحياة إلى عروق السيدة ليليان، التي كسا الإجهاد وجهها.

قالت مها في صوت خافت وبابتسامة عذبة:

- ميرسي على العصير ..

فابتسمت لها ..

لفنا الصمت لحظات ، قبل أن تقطعه ليليان:

- كنت أتمنى أن يكون هناك جهاز لغربلة الذكريات المريرة، كما يغربل هذا الجهاز السموم التي تمرح في دمائي على راحتها !!

كان صوتها مختلفا بعد بداية عمل الجهاز .. امتزج فيه الوهن بالمرارة .. منحتها نظرة شفقة .. لكنها استعادت

ابتسامتها المتألقة بسرعة - بالرغم من حالة الوهن التي يسببها الجهاز - وقالت بنبرة متدفقة بالحماس:

- إني أدعوكما لتشريفي في صالوني الثقافي بوسط البلد يوم الأربعاء القادم ... ما قولكما؟

لستُ من هواة الجلسات الثقافية المملة تلك .. لكنها فرصة لأقضي وقتا مع مها بعيدا عن جو المرضى هذا .. نظرتُ إلى عينيها التي منحتني الموافقة دون كلام ..

* * *



الجزء الثاني

وسط البلد

كلمة من خمسة حروف، تلقي الرعب في قلب أي طبيب امتياز مهما كان متفوقا ..

الـ .. **طوارىء** ..

الإلمام بأبعاد الحالة في دقيقة .. ثم اتخاذ القرار الصائب في نصف دقيقة .. ثم التنفيذ على الفور .. هذا هو الشعار الرسمي لعيادة الطوارىء!!

ستون يوما هي مدة تدريبي في الطوارىء .. ستون يوما من الضغوط العصبية والنفسية .. ستون يوما من "البهدلة" واضطراب النوم والبيات بعيدا عن البيت .. ستون يوما حافلة بالبطون المبقورة، والأطراف المبتورة، والعيون "المخزوقة"، والأدمغة المفتوحة .. وكل ما يثير الهلع والإشمئزاز في جوارحك كلها .. ولعل ما يثير الهلع أكثر ؛ أن النائب المنوط بتدريبي يكون غير موجود في أحيان كثيرة .. مما يضعني تحت ضغط نفسي وعصبي وجسدي .. فهي مسئولية عظيمة بلا شك ..

البداية كانت فريدة من نوعها ..

كانت الساعة قد جاوزت الثالثة صباحا، وقد أسلمت نفسي لغفوة ممتعة .. أيقظتني هزة من يد الممرضة النوبتجية .. رفعت رأسي إليها وفي عيني نظرة استياء .. نظرة الجزع التي كست وجهها جعلتني انتفض قائما .. وأهرع ورائها لأرى السبب الذي من أجله أيقظتني .. شاب أسمر يرتدي

جلبابا .. وقد استلقى على سرير الكشف .. مسحته بعيني من فوقه لتحته .. لا أرى أثرا لدماء ولا إصابات .. ولا لأي شيء غير عادي باستثناء ذلك الجزء البارز من تحت الجلباب عند منطقة الحوض .. تركزت عيناي عليه، وقبل أن أسأله كان قد رفع الجلباب .. لتصدر شهقة مكتومة من الممرضة .. تسارعت ضربات قلبي وأنا أنظر إلى عضوه الذي انتفخ إلى ثلاثة وربما أربعة أضعاف حجمه ..

ارتديت قفازين بلاستيكين .. وبدأت أفحصه .. وهالني ما وجدت .. عنق زجاجة ملتف حول القضيب من أسفله .. وهو ما جعل الدم يختنق داخل القضيب حتى انتفخ على هذه الصورة .. العجيب أن الفتى متماسك بالرغم من أنه معرض لفقد رمز رجولته ..

- منذ متى؟

- أربع ساعات .. وربما أكثر ..

لم أتمالك نفسي:

- وما الذي أخرك كل هذا أيها الغبي؟

واصلتُ في عنف أكثر:

- هل تدرك أن ما فعلته قد يسبب تعفن خلايا القضيب وبالتالي نضطر إلى بتره!!

سرتْ ارتجافة إلى صوته وهو يجيب:

- كنت أحاول أن أنزعها .. لكنني كلما حاولت ازداد حجم الـ ...

ولم يكمل .. بدأت عيناه تغرورقان .. إنه يكتم أطنانا من الهلع بداخله .. لن أثير هلعه أكثر .. التفت إلى الممرضة التي لازال الذعر يكسو وجهها .. صرخت فيها أن: احضري لي محقنا (Syringe) .. تحركت كالملسوعة لتصدع بما

أمِرَتْ .. كشفتُ سن المحقن وأنا أطلب إليه أن يظل ساكنا حتى أستطيع أن أغرزه في قضيبه دون أن أحدث ضررا .. أطلق شهقة مكتومة لكنه ظل ساكنا وأنا أسحب الدم من قضيبه المنتفخ كالبالون .. شعرت بجسده يرتجف بينما الدم يتناقص تدريجيا .. وتضاءل حجم القضيب إلى الحد الذي يسمح لي بأن أحشر المبعاد الجراحي (Surgical Retractor) بينه وبين عنق الزجاجة .. ثم استعنت بمقص جراحي لأكسره - العنق لا القضيب - وانتظرت دقيقة حتى استعاد عضوه حجمه الطبيعي .. عند تلك اللحظة انهار الفتى وانخرط في البكاء وسالت الدموع من عينيه بلا انقطاع!!

تسللت الشفقة إلى قلبي تجاهه .. طلبت من العاملة أن تحضر له علبة بسكويت وعصير من الذي تخزنه عندها لتبيعه إلى المرضى بضعف الثمن .. فلما تأكدت أنني من سيدفع، أحضرت أغلى نوع بسكويت وأكبر زجاجة عصير لديها .. ماذا أفعل وهي تربية شكرية المفترية!!

أفرغ الفتى الزجاجة في جوفه دفعة واحدة، فقد كان حلقه جافا بسبب حالة التوتر والقلق التي مر بها .. ثم وضع البسكويت في جيبه .. شكرني بحرارة ممتزجة بالخجل .. قبل أن ينصرف .. لأدخل أنا في حالة من التفكير .. شاب في أواخر العشرينات .. لا يستطيع الزواج .. تدفعه شهوته المتأججة إلى الفانتازيا الجنسية (Sexual Fantasy) .. لعله تخيل أن عنق الزجاجة فرج امرأة فانطلق يضاجعها بكل مخزون الشهوة لديه .. لينتهي به الأمر في عيادة الطوارىء مهددا بفقد رجولته إلى الأبد!!

شعرت بالرضا عن نفسي بعدما فعلت .. لقد أنقذت مستقبل الشاب "الجنسي"، لو صح التعبير .. كنت مسيطرا

على الموقف تماما واحتويت الحالة في دقائق .. و ...
وضبطت نفسي متلبسا بالإعجاب الشديد بنفسي، وهو في رأيي، أسرع الطرق المؤدية للفشل!!

* * *

بعد ثلاثة أيام، فوجئت بها في عيادة الطوارئ وقد أغرق اللون الأحمر صدرها .. كان وجهها شاحبا وخرجت الكلمات من شفتيها مرتعشة .. لا بد أنها فقدت الكثير من الدماء حتى وصلت إلى هنا ..

- الجرح انفتح ..

قالتها وسقطت محدثة صوت ارتطام مكتوم.

طلبت من الممرضة والمساعدة أن تحملاها إلى غرفة العمليات الصغرى الملحقة بالعيادة .. وأن يجهزا لي الأدوات المطلوبة لوقف ذلك النزيف .. بعدها طلبت من الممرضة أن تحضر لي من بنك الدم كيسين من فصيلتها التي ما زلت أذكرها. ثم ارتديت القفازات استعدادا للعمل.

كان قلبي ينتفض في عنف حتى خيل إلي أن المساعدة تسمع صوت دقاته .. وكانت يداي ترتعشان مما جعلني أتوقف للحظات محاولا السيطرة على أعصابي قبل أن أعاود العمل ..

انتهيت من وقف النزيف وقمت بتضميد مكان الجراحة جيدا .. ثم مسحت طبقة العرق التي كست وجهي .. أخذت نفسا عميقا وأنا أتأمل جسد بثينة المسجى أمامي .. كانت العاملة قد جردتها من معظم ملابسها .. ووجدتني أجردها مما تبقى لتصبح عارية تماما .. وللحظة شعرت أنه لا

ينقصها سوى الجناحين لتكتمل صورة الملاك العاري كما رسمتها ريشة بعض الفنانين ..

احتويت وجهها بين يدي .. ملمس خدودها المكورة كالتفاح يرسل شعورا كالخدر في جسدي .. مرت أصابعي على شفتيها المكتنزتين المثيرتين .. ثم وجدتني اعتصرهما بين شفتي .. وانطلقت يداي تكتشفان كل شبر في ذلك الجسد المرمري .. بعدها بدأت أتحرر من ملابسي .. ليلتحم جسدي في النهاية بجسدها غير عابيء بتدنيس طاولة الجراحة المقدسة ...... و ....

واستيقظت من النوم !

للحظات شعرت أنني لم أكن أحلم .. وأن جسدي لا يزال ملتحما بجسد بثينة .. لكن غيمة النوم انقشعت لأكتشف أنني مستلق في فراشي داخل "الكشك" (الغرفة المخصصة لراحة الطبيب المناوب) .. نظرت في ساعتي .. انتهت النوبتجية .. وسيصل "سامح" طبيب الإمتياز الذي سيحل محلي بين دقيقة وأخرى .. انتزعت جسدي المنهك من الفراش .. لأغير ملابسي استعدادا للإنصراف .. لأفاجأ بتلك المنطقة الندية في سروالي الداخلي .. هل ....!!

لم أتوقع أن تتغلغل الفتاة إلى أعماقي بتلك الطريقة.

من جديد عادت صورتها تتشكل أمام عيني .. هززت رأسي بقوة كأنما أطرد طيفها الذي يلاحقني.

هل هي محاولة من العقل الباطن للتنفيس عن رغباتي الجنسية؟ .. فكثيرا ما يلجأ العقل الباطن إلى حيلة كتلك لتخفيف وطأة التوتر وخلق حالة من الهدوء النفسي التي تعين الإنسان على الاستمرار ومقاومة ضغوط العمل والحياة. هي بالتأكيد لعبة من ألاعيب العقل الباطن ..

انتهيت من تغيير ملابسي وجلست خارج "الكشك" في انتظار لحظة الإفراج .. ولم انتظر طويلا .. وصل سامح بعد دقائق وفي يده كيسا بلاستيكيا تفوح منه رائحة الفول والطعمية. سألني إن كنت أرغب في تناول الإفطار معه لكنني اعتذرت . قال وهو يتجه إلى "الكشك" ليغير ملابسه:

- هناك فتاة تنتظرك بالخارج.

فتاة ؟! أية فتاة ؟!

- تقول إنك كنت تتابع حالتها في عيادة الجراحة العامة .. وقد جاءت لتستشيرك في أمر ما.

بطلة الحلم .. تلاحقني في الواقع!!

سألته متصنعا اللامبالاة:

- لماذا لم تدعها تدخل؟

مد رأسه خارج "الكشك" قائلا:

- كنت أظن أنني سأجدك لا تزال نائما .. فطلبت منها الانتظار خارج العيادة.

وعادت رأسه لتختفي داخل "الكشك".

ضبطت نفسي متلبسة بالغبطة. هل مازلت أحلم أم أنني حقا أشعر بالانجذاب نحوها. ربما كان شعوري نحوها نوعا من الشفقة بعدما تخلى عنها خطيبها وهي في حاجة إلى دفء مشاعره لتهون عليها مرضها.

اتجهت إلى باب العيادة وأنا أحاول أن أطرد تلك الأفكار من ذهني .. لا بد وأن أتعامل معها بتحفظ مِهَني.

اتسعت ابتسامتها عندما رأتني ومدت يدها لتسلم علي لكنها لم تطل مدة المصافحة هذه المرة .. ووجدتني ابتسم لها بالمثل. كانت ترتدي "تي شيرت" ضيقا تتسع فتحته لتكشف جزءا من الثديين .. و "بنطلون جينز" ضيقا يبرز تكور

أردافها الممتلئة. اختلف شكلها كثيرا عما كانت عليه .. بعد أن خلعت الحجاب الذي كانت ترتديه عندما زارتني أول مرة والذي منحها سنا أكبر من سنها.

مدت يدها لتزيح خصلة تهدلتْ على جبينها العريض قبل أن تتخلل بأصابعها الرشيقة شعرها الناعم فاحم السواد والذي التف حول وجهها ليصنع لوحة بديعة مع لون بشرتها الخمري الذي أحبه .. سألتني:

ـ ما رأيك في الـ new look ؟

ابتسمت دون أن أعلق، فقالت وهي تطلق زفرة طويلة:

ـ الحمد لله أنني تخلصت من خطيبي الذي أرغمني على تغطية شعري.

وأمسكت بخصلة من شعرها الحريري مواصلة:

ـ بالله عليك أجب سؤالي: لماذا أخفي شيئا جميلا منحه الله لي .. كأنما الجمال إثم يجب ستره .. إنني أحب التباهي بشعري الجميل .. ولا يكتمل شعوري بذاتي كأنثى عندما أغطي شعري بقطعة من القماش، لن تقربني ـ كما يزعم المتشددون ـ من الله.

ووجدتني رويدا رويدا أنسى تحفظي وأنزع ثوب الرسميات .. وانخرط معها في حوارات شتى .. لأكتشف أنها تملك ذهنا متفتحا ولها فلسفتها الخاصة في الحياة .. بل إنني اكتشفت أنني اتفق معها في كثير من الآراء التي ناقشناها !! .. غير أن ما أثار دهشتي أنها لا تقرأ كثيرا بالرغم من آرائها وفلسفتها التي تعكس قدرا عاليا من الثقافة والإطلاع .. وتذكرت رأيا لمذيع لامع قال فيه إنه لا يقرأ كثيرا .. بل إنه لا يحب القراءة .. عندها أبدى محاوره دهشة شديدة .. فذلك المذيع مشهور بنظرته وآرائه العميقة التي

توحي للمتلقي بأنه قرأ مئات الكتب .. وأوضح المذيع اللامع أن الثقافة لها مصادر كثيرة جدا أحدها القراءة .. فهناك من يستقي ثقافته من السينما مثلا .. أو من الأغاني .. أو من لوحة فنية جميلة يقف أمامها متأملا بالساعات !! لم أقتنع وقتها بهذا الرأي .. لكن بثينة بآرائها الناضجة وعقليتها المتفتحة جعلتني أميل للإقتناع برأي المذيع اللامع.

وصلنا إلى بوابة "القصر" الخارجية. تباطأت خطواتي تمهيدا ليفترق كل منا في طريقه، لكنني فوجئت بها تجذبني - في جرأة - من ذراعي قائلة بابتسامة:

- اسمح لي أن أدعوك للإفطار . ما رأيك في شطيرتي فول وطعمية من "آخر ساعة" بوسط البلد؟

لم أقاوم . سرت إلى جوارها وأنا أشعر ببعض الدهشة، فأنا لست من الشخصيات "العِشرية"، ولا اندمج مع الآخرين بسهولة. بكلمات أخرى: الطبع "البرّاوي" يجري في دمائي. لكنني أجدني مشدودا للتواصل معها. شيء ما في هذه الفتاة يجذبني إليها كما يجذب المغناطيس الحديد!

* * *

شارع الألفي يلمع بعد أن غسلته أمطار ليلة الأمس ..

كان الشتاء في نهايته .. وكانت تلك الأمطار مفاجأة الشتاء الأخيرة قبل أن يلملم نفسه استعدادا للرحيل ..

المقاعد الخشبية لا تزال رطبة .. انتقت بثينة مقعدا قريبا من "آخر ساعة" .. جففتْ الأجزاء التي لا تزال مبللة بمنديل ورقي قبل أن تسألني عما أريد أن آكله من ساندويتشات .. هممت أن اعترض لكنها سارعت قائلة:

- أنا عازماك.

مضى الوقت في الأكل والثرثرة، أنا آكل وهي تثرثر .. وكانت ثرثرتها ممتعة. لاحظت أنها لم تكمل الساندويتش الأول، فهي تتحدث بلا توقف. دفعني الفضول لأسألها عن قصتها التي حضرتُ نهايتها في عيادة الجراحة.

ومضت نظرة حزن في عينيها، قبل أن تترك الساندويتش.

- لماذا أعكر مزاجك بعد هذه الوجبة اللذيذة؟

- اتعلم من تجارب الآخرين .. فلا تترددي في الحكي .. أنا الآن أذن تصغي .. و .....

قاطعتني:

- وأنا لسان يثرثر !

ابتسمت لتشبيهها الذي يشي بحسها المرح. سحبتُ نفسا عميقا .. ثم شرعت تحكي ..

* * *

قالت بثينة:

"كانت الحياة بالنسبة لي بعد تخرجي في المعهد التجاري العالي، مثل زميلة تخرج لي لسانها في سخرية .. فقد كنت أظن أنني بقليل من الجهد أستطيع الحصول على وظيفة معقولة كخطوة نحو الإستقلال من سيطرة أسرة تفكر بعقلية القرن الماضي .. خاصة أخي "بدر" الذي تغير بعد دخوله المرحلة الجامعية .. فجأة بدأ يتصرف كأنه خليفة "حسن البنا" وباقي أفراد الأسرة هم أتباعه .. أصبحت ثقافة الحرام والحلال هي المناخ المسيطر على أحاديث البيت .. وتضاءل بل ربما تلاشى الحديث عن السينما والمسلسلات والأغاني والبرامج التلفزيونية الجريئة .. ثم بعد ذلك تجاوز أخي

مرحلة الناصح ليصبح الحاكم بأمره في البيت .. كل شيء ممنوع .. التأخير بعد التاسعة مساء خارج البيت ممنوع .. والأفضل ألا أخرج إطلاقا .. لبس الثياب على الموضه ممنوع .. الكلام في الموبايل بعد الساعة الثانية عشرة ممنوع وإلا حرمت من الموبايل .. السفر مع أصدقاء الدراسة لقضاء بضعة أيام في الإسكندرية يدخل مرتبة التحريم القاطع!! .. قائمة طويلة من الممنوعات والمحرمات جعلتني أشعر بالاختناق من حياتي كلها .. والمشكلة أن أبي لا يعارضه بحجة أنه لا يريد أن يكسر شخصيته .. يريده أن يكون صاحب قرار .. لذا فهو يشجعه أحيانا حتى وإن اختلف معه في الرأي .. وحين دخل بدر الجيش، شعرتُ كأنما فُكَ أسري بعد طول انتظار ..

بعدها جائتني فرصة للعمل في الغردقة ..

شعرتُ أن الحياة لم تعد تخرج لي لسانها لتسخر مني .. وكانت سفرية الغردقة تلك هي فرصتي الحقيقية للخلاص .. فبالرغم من أن "بدر" قد صار بعيدا معظم الوقت .. إلا أنه كان يأخذ إجازات منتظمة أو كلما سنحت الفرصة .. لنفاجأ أن نزعة القهر قد ازدادت لديه بعد دخوله الجيش .. وأصبح يمارس كل ما افتقده من فنون القهر عليّ بل وعلى أمي كذلك في كل إجازة ينزلها .. كأنما يعوض ما فاته وهو مدفون في "الهايك ستيب" .. وما ضاعف شعور القلق بداخلي هو تأثر أبي ببعض أفكاره المتشددة .. والذي بدأ يكمل مشوار القهر - الذي بدأه أخي - أثناء وجوده بالجيش.

لذا فلم أتردد لحظة واحدة في قبول تلك الفرصة ..

الوظيفة لا بأس بها .. سكيرتيرة عيادات في مستشفى "السلام" بالغردقة .. مستشفى فندقي .. خمسة نجوم ..

صورة المستشفى المرفقة في الإعلان تثير الانبهار .. لم أر هذه الفخامة في مستشفى آخر من قبل .. المرتب ممتاز بالمقارنة بالمرتبات في القاهرة .. ليس هذا فقط .. فالمستشفى يوفر لي ثلاث وجبات وسكن وبدل سفر .. وسأندم ندما شديدا إن أضعت تلك الفرصة التي ستحقق لي ما أصبو إليه ..

العقبة الوحيدة كانت في أخي متحجر الدماغ .. فقد أصر أبي وأمي أن نشركه معنا في الرأي .. وكنت أعرف أن "بدر" سيرفض بلا شك .. ولم يتبق سوى أسبوع قبل أن يشرفنا بحضوره الثقيل .. لذا فقد كان الحل الوحيد أن أقنع أبي ليسافر معي إلى الغردقة لأجري مقابلة مع مشرفة العيادات في حضوره .. وليتمكن من تكوين فكرة حقيقية عن المستشفى والعاملين فيها .. وهذا ما كان .. ومرت المقابلة على خير .. وأبدى أبي ارتياحه بعد أن تحدث مع المشرفة ورئيس شئون العاملين ونائب مدير المستشفى .. لكنه لم يحسم رأيه إلا بعد أن زار سكن ذكور التمريض ليتأكد أنه بعيد تماما عن سكن البنات .. هنا فقط اطمئن قلبه .. لكنه مع هذا ظل مترددا في الموافقة ..

وكانت هذه هي اللحظة الحاسمة لكي أمارس أهم أسلحة الأنثى على أبي .. "دلع البنات" .. فبالرغم من صرامته الظاهرية النابعة من أصوله الصعيدية .. إلا أنه طيب القلب رقيق الحاشية .. طلبت منه أن يعزمني على الغداء في مطعم السمك الذي كان يأكل فيه هو وأمي في شهر عسلهما الذي قضياه في الغردقة .. فقال أبي وهو يقرصني في خدي:

- أيتها اللئيمة .. تستغلين حنيني لذكريات شهر العسل.

- أريد أن أرى الأماكن التي ارتوت فيها بذرة حبكما.

- سيكلفني هذا مبلغا كبيرا .. لكن لا بأس أيتها الشقية.

كان أبي سعيدا جدا وهو يحدثني عن التغيرات التي حدثت في المطعم والتي لم تغير من طابعه الأصيل .. ثم انطلقنا بعد ذلك إلى كافيه "العُمدة" المطل على البحر مباشرة .. واندهش عندما رأي تمثال "العمدة" موجودا في بهو الكافيه كما تركه منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما .. كان أبي يحكي .. بل كان يثرثر بكل التفاصيل كأنما شهر العسل انقضى منذ بضعة أيام! .. وانتهزت أنا لحظة كان شاردا فيها يتذكر الساعات الجميلة التي عاشها وأمي هنا لأسأله وأنا أغلف صوتي بآيات الرقة والدلال:

- ما رأيك يا بابا .. موافق على عملي هنا؟

كانت تلك لحظة مناسبة جدا للسؤال .. فقد كان مزاجه في تلك اللحظة رائقا جدا بعد أن عاش كل تلك الذكريات مرة أخرى .. فوجدته يقبلني على جبيني ويمنحني الموافقة بهزة من رأسه قبل أن يحتضنني في حنان أبوي!

وانقضى الأسبوع .. ووصل أخي إلى البيت ليفاجأ بشنطة السفر موضوعة على السرير وقد تراكمت ملابسي وحاجياتي بها .. تعمدتُ أن أبدو منهمكة في تحضير الشنطة في لحظة دخوله غرفتي ليسلم علي .. وذلك حتى يفهم أن الموضوع قد انتهى وأن عليه أن يقبل بالأمر الواقع .. لقد حُسم النقاش قبل أن يبدأ .. فلا تتعب نفسك يا أخي العزيز في محاولات جدلية فاشلة ... ولكن هيهات أن يسلم خليفة "حسن البنا" بالفشل بتلك السهولة .. ووصلني صوت جداله العالي مع أبي الذي كان حازما معه على غير العادة .. وانتهى الجدال لصالحي .. مما دفع أخي "المهزوم" ليلملم حاجياته ويقطع إجازته قبل أن تنتهي عائدا إلى "جنة" الهايك ستيب!

كنت سعيدة بانتصاري .. لكن سعادتي الحقيقية كانت في الفرصة التي ستمنحني الاستقلالية التي أريدها .. ولكنني كنت ساذجة .. ساذجة للغاية! .. فبعد أن كنت أظن أنني تخلصت من وصاية أسرتي، اكتشفت أنني وقعت تحت طائلة وصاية أشد .. هي وصاية المستشفى المتمثلة في الدكتور حسني عبد الدايم نائب مدير المستشفى صعيدي الأصل!

قائمة طويلة من الممنوعات .. وضعها نائب المدير .. الذي شعرت أنه اتفق مع أبي سراً عليّ .. فالاختلاط وقت الوجبات بين البنات وشباب التمريض ممنوع .. المكياج ممنوع .. الخروج من السكن يكون بإذن من المشرفة .. وممنوع أن نتأخر بعد الحادية عشرة مساء .. مع إن العمل ينتهي رسميا في العاشرة! .. يعني بالكتير أذهب للسوبرماركت القريب من السكن ثم أعود خطاي مهرولة قبل أن يسجل الحارس خروجي على قانون الوصاية والقهر والقمع!

يا ربي .. أفلتُ من وصاية أسرتي لأسقط في وصاية أخرى أشد منها!!

لكن وقت التراجع كان قد ولى .. فهذا اختياري ولا بد أن استمر حتى لا أصبح أضحوكة الأسرة ..

وضعتْ لي المشرفة جدولا للتدريب بجميع أقسام المستشفى .. الداخلي .. العيادات .. الطواريء .. العمليات .. العلاج الطبيعي والتأهيل .. وفي نهاية جولة التدريب التي ستستغرق ثلاثة أشهر ستقوم بتقييمي بناء على التقارير الواردة عني من أقسام المستشفى لأستقر بعدها في أكثر مكان أثبتُ فيه كفائتي .. وكان ذلك المكان هو قسم العلاج

الطبيعي والتأهيل .. ولم تكن كفائتي في ذلك المكان بسبب حبي لطبيعة العمل به .. ولكن بسبب مدير القسم .. الدكتور "مهند" .. الذي اكتشفت أن كل ممرضات وسكيرتيرات المستشفى يتغزلن في حلاوته ورقته وأناقته .... و ... وكن كلما رأينه يدندن بأغنية "كاظم الساهر": كلك على بعضك حلو .. وشعرت بالغيرة في عيونهن عندما علمن أن المشرفة قد ثبتتني مع "ثريا" في قسم العلاج الطبيعي ....".

لم أستطع أن أقاوم السؤال:

- يراودني الشك أن الدكتور مهند هذا له علاقة بما حدث في عيادة الجراحة منذ أسابيع ..

ابتسمت بثينة واحمر خداها .. ثم نقرت بإصبعها السبابة على جبهتي قائلة:

- لا تسبق الأحداث .. إنك تفسد عنصر التشويق في قصتي .. تماما مثل الذي يخبرك بنهاية الفيلم وأنت لاتزال في بدايته ...

وعادت شهرزاد تحكي وأنا أستمع والفضول يملأني للنهاية:

"شاب في الثلاثينات هو .. وسيم .. عيناه العسليتان تستطيعان أسرك في بحرهما الممتد إلى ما لا نهاية .. أنيق بالرغم من بساطة ذوقه .. رقيق الحاشية .. وعندما يتحدث فإنني أستمع له كأنني أستمع إلى ساحر .. ووجدتني أنجرف إلى الهاوية" ..

مرة أخرى أقاطعها بطريقة لا تخلو من التهكم:

- هاوية الحب طبعا!

فنظرتْ إليّ نظرة المعلمة لتلميذها المشاغب .. قبل أن تواصل:

"أصبحت حياتي كلها تتمحور حوله .. تصرفاتي كلها مبنية على ما يقول .. فإذا قال مثلا إنه يحب اللغة الإنجليزية، أجدني اهتم بها بالرغم من أن دراستي كلها كانت بالعربية .. وأبحث بكل حماس على الإنترنت عن دروس صوتية لإجادة اللغة الإنجليزية .. وأكون حريصة أن يصله اهتمامي هذا .. وإذا قال إن الكمبيوتر هو لغة العصر وإن اليابان تُعرّفُ الأمي بالشخص الذي لا يجيد التعامل مع الكمبيوتر، أجدني أسارع بحجز كورس كمبيوتر في "مركز البرمجيات" الشهير بشارع "شيراتون" لأقضي على "أميتي التكنولوجية" ..

كنت حريصة على أن أكون كما يقول بالضبط .. لعل هذا يلفت انتباهه لي ولو قليلا .. لكن هذا لم يجدي .. صحيح أنه كان لطيفا معي نظرا لاجتهادي في عملي، بل وكان يشجعني كثيرا على المضي قدما في دراسة اللغة والكمبيوتر .. وصحيح أنني كنت أرى الإعجاب في عينيه أحيانا .. لكنني لم أتخط في نظره بعد كل هذا حيّز السكيرتيرة المجتهدة التي ترقى أحيانا إلى مرتبة الصديقة .. بينما كنت أطمح إلى ما هو أكثر من هذا ..

لم يترك تجاهله أمامي سوى حيلة واحدة تستخدمها حواء منذ قديم الأزل .. الإغراء .. وكان عليّ أن استخدم ذكائي حتى لا تأتي تلك الطريقة بنتيجة عكسية .. قلبت الأفكار في ذهني حتى انتهيت إلى أن أتخذ من نهمه للتكنولوجيا مدخلا لخطتي .. فقد كان الدكتور مهند عاشقا للتكنولوجيا .. بالذات ما يخص أجهزة المحمول الذكية (symbian mobiles) .. وكان يستطيع أن يضاعف إمكانيات المحمول عشرات المرات بالبرامج المتقدمة التي يثبتها عليه .. لدرجة أن

شهرته في هذا المجال طافت بأرجاء المستشفى كلها .. أذكر موقفا طريفا حدث أمامي في بداية عملي بالقسم .. حيث حضر الدكتور "مارك" أخصائي القلب بالمستشفى إلى قسم العلاج الطبيعي .. فأدخلته إلى غرفة المكتب ثم استدعيت الدكتور مهند الذي كان منشغلا بعلاج إحدى الحالات في الغرفة "أ" .. فما إن رآه الدكتور مارك حتى أخرج من جيبه جهاز نوكيا n٧٣ ووضعه بحرص شديد على المكتب أمامه كأنه مصاب إصابة بالغة .. وقال بجدية:

- الموبايل لا ينطق يا د/ مهند .. أرجوك اكشف عليه!

تلك إذن ستكون النقطة التي سأتسلل منها إلى حصنه المنيع ..

في الفترة الصباحية يكون ضغط العمل قليلا .. لذا فقد استأذنته ليعلمني بعض الأشياء في جهازي المحمول .. قبل أن أسأله عن كيفية إخفاء صوري الخاصة عن أعين المتطفلين الذين يعبثون بجهازي وأنا في السكن .. وتعمدت أن أبدي بعض الخجل وأنا أنطق عبارة "صوري الخاصة" .. وقرأت في عينيه أنه فهم ما أريد قوله .. لقد ابتلع الطعم .. ولا بد أنه يتساءل الآن عن طبيعة الصور التي أريد إخفائها عن الأعين ..

وتعمدت ألا أترك له المحمول حتى ينتهي .. ليتأكد في داخله أنني أخشى أن يعبث بالمحمول بحثا عن الصور التي أريد إخفاءها .. هذا سيزيد شوقه لرؤية تلك الصور .. الفضول البشري هذا نعمة !!!

بدأ يوصل المحمول بالكمبيوتر عن طريق البلوتوث ليكشف عن (version) الجهاز - كما أخبرني - حتى يختار البرنامج الملائم له .. بعدها قام بالبحث على الإنترنت عن

برنامج إخفاء الصور .. ثم بحث في أحد مواقع هواة القرصنة الإلكترونية عن (crack) للبرنامج .. ثم أرسل الملفين لا سلكياً للجهاز .. وبعدة ضغطات على الأزرار كان قد انتهى من تثبيت البرنامج ..

طلب مني أن اقترب منه ليشرح لي طريقة عمل البرنامج .. فاقتربت منه وانحنيت لتعانق أنفاسي أنفاسه .. لم أستطع التركيز فيما يقول .. لانشغال عقلي بأمور أخرى .. ترى هل أعجبه العطر الذي أضعه؟ .. هل هو متوتر مثلي الآن .. قلبي يدق بعنف حتى ظننت أنه قد سمع دقاته .... و .....

انتبهت من شرودي على صوته:

- الآن نريد أن نجري تجربة عملية .. أدخليني على ملف يحتوي بعض الصور حتى أقوم بإخفاء بعضها لك ..

ابتسمت في سري .. أيها الخبيث .. ليس بهذه السرعة ..

اعتذرت له بأن الصور العادية مختلطة مع صوري الخاصة في ملف واحد .. وبأنني قد فهمت الطريقة وسأقوم بتجربتها اليوم ..

لا بد وأن أترك الفرصة لنار الفضول بداخله لكي تزداد تأججا .. وعندما أشعر أن نار الفضول قد التهمت كل مخزون الصبر لديه .. وقتها فقط سأمنحه تأشيرة الدخول إلى ملف صوري "الساخنة" ..

انتظرت بضعة أيام .. كنت خلالها أشعر بتغير في نظراته لي .. لا بد أن عقله راح يرسم تخيلات عدة لتلك الصور .. لا ينبغي أن أتركه ينتظر أكثر من هذا حتى لا يزهد الموضوع ككل .. لذا فقد انتهزت فترة الراحة واستعداده للذهاب للمطعم لتناول الغداء .. وقمت بإثارة فضوله قائلة:

- عندي مشكلة في الموبايل ..
قرأت الاهتمام في عينيه .. سألني:
- مشكلة بخصوص برنامج إخفاء الصور؟
أومأت برأسي:
- وضعت صوري الخاصة في ملف واحد وعندما ضغطت على زر (ok) ليقوم بالإخفاء طلب مني - كما تعلم - وضع كلمة سر من ثمانية حروف حتى أتمكن من استعادة الصور المخفية مرة أخرى .. وقد كان ..
وصمتُ قليلا .. لتحفزني نظرة عينيه على المواصلة:
- المشكلة أنني نسيت كلمة السر ..
ودفعت بالمحمول إليه كأنني طفلة تعيد لعبتها المعطوبة لصاحب المتجر الذي اشترتها منه:
- شوف لي حل يا دكتور في الموبايل المريض ده .. اكشف عليه زي ما كشفت على موبايل الدكتور مارك.
فرد علي ضاحكا:
- ده على أساس إن "الأقربون أولى بالمعروف" ؟!
بادلته الضحك .. وتركته وأنا متأكدة من أنه سيستطيع كسر حماية البرنامج ببرنامج آخر .. فهو عبقري حقيقة في مجال تكنولوجيا المحمول .. والجهاز سيظل معه حتى بداية الفترة المسائية .. وسيدفعه الفضول إلى رؤية صوري الخاصة .. لتكتمل بهذا خطتي ..
ولكن ما حدث في المساء أربكني .. فقد أعاد لي المحمول مدعيا أنه لم يستطع فك شفرة البرنامج .. وأنني لا بد وأن اعتصر ذهني لأتذكر كلمة السر .. وإلا ظلت الصور مختفية للأبد .. نظرتُ إلى عينيه محاولة اختراقهما إلى أعماقه .. ماذا يدور في داخلك يا دكتور مهند ؟ .. هل صدمتك

صوري "الساخنة" فقررت أن تتلاعب بي مدعيا أنك لم تستطع فك شفرة البرنامج حتى لا أتعامل على أساس أنك رأيت صوري؟!..

وظل حتى نهاية اليوم منهمكا مع الحالات .. وظلت حيرتي تزداد ..

ولكنه وضع حدا لحيرتي وتساؤلاتي في اليوم التالي .. حيث استدعاني إلى مكتبه قبل فترة الغداء بدقائق .. أغلق الباب بالقفل وعيناي تتابعانه والدهشة تطل منهما .. قبل أن يطلب مني أن أغمض عينيّ .. فنفذت دون تفكير وقد أخذتني غرابة الموقف .. لأفاجأ بشفتيه تعتصران شفتي في نهم شديد .. في البداية كان جسدي متصلبا من المفاجأة .. ثم بدأت عضلات جسدي في الإرتخاء لأحيط رقبته بذراعيّ ويحيط هو خصري بيديه .. وامتدت القبلة بضعة دقائق شعرت خلالها أن النار قد انتشرت في جسدي كله .. قبل أن يحرر شفتي أخيرا .. لأشعر للحظة أن العالم قد خلا من كل شيء إلا منه ومن عينيه الساحرتين .. بعدها تركني مغادرا الغرفة دون كلمة واحدة!

ولأول مرة تقف الأقدار إلى جانبي .. فقد استقالت إحدى ممرضات عيادة الأسنان .. فقررت المشرفة أن تحل ثريا مكانها حتى تجد بديلا .. ووجدتها تخبرني - وهي تظهر الأسف من أجلي - بأنني لن أستطيع الحصول على إجازة حتى يتم تعيين ممرضة في الأسنان لتتمكن ثريا من العودة إلى العلاج الطبيعي وتغطيتي في إجازاتي .. ووجدتني أبتسم بيني وبين نفسي .. فهي لا تعلم كم سرني هذا الخبر .. فهو يعني أنني سأحظى بلحظات من الرومانسية مع حبيبي الذي

سحرتني عيناه في الأوقات التي يخلو فيها القسم من الحالات".

وللمرة الثالثة أقاطع حكايتها والفضول يشع من عينيّ:

- لم توضحي طبيعة تلك الصور التي أسقطته كجلمود الصخر من علٍ ..

فابتسمت معلقة:

- جلمود؟! ... هو في حد لسه بيستعمل الألفاظ دي .. حلوه جلمود دي والله ..

وأشارت بكفها إلى المارة الرائحين الغادين قائلة في سخرية:

- جرب أن تستوقف أحدا وتسأله عن معنى الكلمة .. سيظن أنك تشتمه .. قال جلمود قال!

احمرت أذناي خجلا .. هذه الفتاة جريئة لدرجة لا أستطيع مجاراتها فيها .. لم أعلق على عبارتها الساخرة .. واشتمت هي في صمتي استياءا .. فنهضت قائلة:

- ما رأيك أن نجلس في "الأمريكين" ؟ .. فبعد قليل ستفترش أشعة الشمس الشارع كله.

أومأت برأسي وقمت وراءها .. ثم انتبهت لمناورتها الذكية .. ونظرت لعينيها .. لنتحاور دون كلام .. سخريتك تلك كانت طريقتك لتهربي من تساؤلي عن صورك الساخنة .. صح؟ .. وأجابتني عينيها: نعم أيها الطفل الشقي ، أنا أهرب من الحديث عن تلك النقطة ..... وماذا لو طلبت منك أن أرى تلك الصور ..... ومن أدراك أنني لا زلت أحتفظ بها ..... إحساسي يقول لي ذلك ..... إحساسك ليس في محله أيها الطفل الشقي!

وانتهى حوارنا الصامت .. لنمشي بعدها متاجورَيْن .. ننظر إلى المعروضات المطلة علينا من واجهات المحلات .. تعلق هي على إحداها فأعلق أنا على أخرى .. لأشعر بعد دقائق أن أصابعها تلتف حول ذراعي كما يفعل المخطوبين .. نظرت إليها .. كانت مبتسمة وفي عينيها نظرة أخاذة .. هل هذه الفتاة ساحرة .. إنني مسلوب الإرادة تماما ..

ووصلنا إلى الأمريكين .. اختارت طاولة لنجلس عليها .. طلبنا شيئا لنشربه .. قبل أن تواصل شهرزاد حكايتها:

"أصبحت المستشفى هي الجنة بالنسبة لي .. كانت اللحظات الحميمة التي أختلسها مع حبيبي ترفعني فوق السحاب .. ومع الوقت أصبحت تلك اللحظات المختلسة لا تكفيني .. فأصبحت أتعمد ألا أحجز مواعيد للحالات في الفترة الصباحية .. حتى أحظى بأطول وقت ممكن في حضن حبيبي ..

دعاني لمرافقته إلى أحد الكافيهات المطلة على البحر .. وقضينا وقتا جميلا .. كنا عاشقين حقيقين .. لا يعكر صفو علاقتنا شيء .. وتكرر خروجنا .. وكنت أبذل قصارى جهدي لأكون كما يريدني أن أكون .. فقد كانت دماغه متصلبة كـ "التراكوة" .. ولا تفلح كل محاولاتي في الانْثِهَا .. ذات مرة ونحن نتأمل الخيوط الفضية المرسلة من القمر .. ونستنشق النسمات التي يرسلها إلينا البحر .. قلت له إنني أريد أن أكون في نظره أحلى وأرق وأذكى وأشيك فتاة في الدنيا .. ورجوته أن يتعامل مع ما لا يعجبه فيَ أو في أسلوب حياتي بطريقة الـ shift + delete .. فليمسح كل ما لا يعجبه نهائيا .. حتى تبقى الصورة الجميلة للأبد ..

ودعاني لقضاء ليلة في الـ "ستوديو" الذي يقطنه .. وكان ذلك مستحيلا .. فالحارس الذي يسجل دخولنا وخروجنا من السكن سيبلغ إدارة المستشفى بأنني لم أعد للسكن .. فكيف سأبرر هذا .. الحل هو أن آخذ إجازة لزيارة أهلي في القاهرة .. وأقضيها في بيته .. لكن .. من سيغطي غيابي في القسم .. لن توافق المشرفة على الإجازة ما لم يكن هناك من يحل محلي ..

كانت النار التي أضرمتها قبلته الأولى في جسدي مازالت متأججة، بل ازدادت وتضاعفت حتى أصبحت تحرقني ليل نهار .. جسدي يتوق أن يتوحد مع جسده في عناق أبدي .. حتى تنطفيء النيران المشتعلة بداخلي ..

لا بد وأن اتصرف ..

الحل الوحيد هو أن أدعي أن أمي المريضة بالقلب - وتلك حقيقة - قد أصيبت بأزمة قلبية ونقلتْ إلى العناية المركزة (بعدا للشر) .. لا أحب الكذب في هذه الأمور لكنني مضطرة .. بقي فقط أن أخبره بخطتي .. واتفقنا على كل شيء ..

وفي المساء كنت قد لملمت بعضا من أشيائي في حقيبة صغيرة وسلمت على زميلاتي في السكن والدموع تبلل خديّ .. وانصرفتُ ودعواتهم لأمي بالشفاء تصحبني ..

والتقينا أخيرا .. وانطلقتْ بنا سيارته كالصاروخ إلى بيته .. كان متلهفا مثلي بل وأكثر لأن يطأ أرضي البكر .. وضمتنا جدران الـ "ستوديو" .. ولأول مرة أشعر أنه لي وحدي .. كانت ليلة كالحلم .. استمعنا لمجموعة من الموسيقى الكلاسيك .. وارتشفنا من النبيذ الأبيض الذي نقلنا إلى الجنة .. بعدها جاءت اللحظة التي انتظرتها طويلا ..

ذبنا في حضن طويل دافيء .. أنساني الدنيا وما فيها .. آآآآآآآآه ....".

وصمتت بثينة بعد تلك الآهة الطويلة .. وشردتْ عيناها .. لم أشأ أن أخرجها من حالة "الوَجْد" التي شملتها .. أعرف تلك اللحظات الجميلة .. عندما يتذكر الواحد منا وقتا جميلا قضاه في صحبة المحبوب يرتشفان كؤوس المتعة الخالصة ..

أفاقت من شرودها وقد اختفت ابتسامتها ليكسو وجهها حزن مفعم بالحنين للماضي .. ارتشفت بعضا من عصير البرتقال الذي طلبته .. قالت وهي تدير الكأس شبه الفارغة بيدها:

- يا سلام لو كانت الذكريات سهلة في بلعها مثل هذا العصير .. لكنها ليست كذلك .. إنها تقف في حلقك كالشوكة وتصيبك بغصة قد تنتهي بك إلى الموت اختناقا ..

وصمتت قليلا قبل أن تواصل ولمعة الحزن تزداد في عينيها:

- لماذا تموت السعادة بسرعة، بينما يعيش الحزن في داخلنا أعواما طويلة ..

ربَتُ على يدها ومنحتها نظرة مواساة دون أن أتكلم ..

عادت لشرودها مرة أخرى .. قبل أن ترشف ما بقي لها من العصير .. ثم نظرت إلى كأسي التي لا تزال ممتلئة إلى نصفها .. واستعادت ابتسامتها العذبة قائلة بطريقتها المرحة التي اعتدتها:

- لماذا لم تكمل العصير ؟

وحركت إصبعها السبابة أمام وجهي بمعنى التهديد مواصلة:

- انت عايزني اعنس ولا إيه ؟! ده فال وحش عليا !

وشربت العصير متظاهرا بأنني مغصوب عليه .. لنعاود المشي بعدها في وسط البلد .. كانت متأبطة ذراعي بقوة .. كأنما تبحث عن أمان مفقود .. وكانت صامتة .. كانت في تلك اللحظة مثل ورقة الشجر الجافة .. تبدو صلبة لكنها في حقيقة الأمر هشة للغاية ..

أوصلتها لمحطة المترو .. نظرت إلي كأنما لا تريد أن تعود إلى بيتها الذي أصبح تواصلها فيه مع بقية الأسرة شبه منعدم .. وكنت أريد أن أعرف باقي قصتها .. ووثبت الفكرة في ذهني كالضوء الخاطف .. اليوم هو الأربعاء .. الموعد الأسبوعي لصالون السيدة ليليان الثقافي .. لماذا لا أدعوها لتصحبني هناك؟

وعندما عرضت عليها فكرتي .. وَمَضَتِ ابتسامتها الأخاذة من جديد ...

* * *

كانت الساعة قد اقتربت من الخامسة .. ولكنني شعرت أن الساعات التي قضيتها بصحبة بثينة مرت كالدقائق .. ما أدهشني أنني أقدس النوم .. ولو لم أصاحب بثينة إلى وسط البلد لكنت الآن أنعم بدفء فراشي الوثير .. ويبدو أن تفكيري في دفء الفراش قد جعلني أتثاءب .. وبدأت أشعر بثقل النوم فوق جفوني .. فـ "قرصتني" بثينة في ذراعي لتصدر مني آهة مكتومة .. ونظرت إليها كمن ينظر إلى طفلته المشاغبة .. فقالت:

- ماذا تفضل: دفء الفراش .. أم صحبة فتاة زي السكر مثلي؟

أيتها المطعونة في قلبك .. كيف تستطيعين أن تكوني مرحة هكذا ؟! .. وأجبتها وأن أرد الدعابة بدعابة:

- طبعا دفء الفراش .. ظننت هذا واضحا !

- أيها الشرير .. يا لزوجة المستقبل التعسة .. لا بد وأنك ستمل منها بعد شهر أو اثنين على الأكثر .. اعتبرني تدريبا على الزواج ليؤهلك على عدم الشعور بالملل بهذه السرعة!

شقة مدام ليليان التي تقيم فيها الصالون الثقافي تقع في أحد الشوارع المتفرعة من شارع طلعت حرب .. والصالون يبدأ في السابعة .. وقد بدأت بطني تعلن الاعتراض بانقباضاتها غير المنتظمة ..

دعوت بثينة للغداء في الـ "فوود كورت" في طلعت مول .. طلبت أنا وجبة من فروج "الطازج" .. وطلبت هي الكومبو الشهير من "مكدونالدز" .. مضى الوقت بين ابتلاع لقيمات الطعام والثرثرة .. طلبتُ منها أن تكمل حكايتها التي أثارت فضولي .. قالت:

- تركني الدكتور مهند بعد أن أنهت المستشفى تعاقده لأسباب غير معلنة .. ولم يحاول أن يبحث عن فرصة أخرى في الغردقة لتبقيه إلى جواري .. اكتشفتُ حينها أنه شخص ضعيف متخاذل وليس من النوع الذي يحارب من أجل اقتناص الفرصة في زمن أصبحت فيه الفرص نادرة .. فقط أخبرني والأسى يغلف ملامحه أنه لم يعد له مكان في الغردقة .. وأنه ليس بقادر على الارتباط في ظل ظروفه الاقتصادية غير المستقرة ..

قلت وأنا أحاول تقمص تفكير حبيبها المتخاذل:

- يراودني شعور بأنه هو الذي قدم استقالته .. بعد أن شبع من فلوس مستشفى السلام .. لعله خشي أن تزداد علاقتكما

عمقا عما وصلت إليه .. فقرر الإنسحاب ملفقا مسألة إنهاء التعاقد تلك.

تريثتْ قليلا مفكرة في كلامي، قبل أن تقول:

- ربما .. لم أعد استبعد شيئا في هذا العالم الكريه الذي يجبرنا على استنشاق رائحته العفنة كل يوم صاغرين ..

واصلت كأنما تتهكم على نفسها:

- شوف مين اللي بيتكلم .. أنا أيضا كنت ضعيفة ومتخاذلة .. مثله .. كان من المفروض أن ألقي بما حدث وراء ظهري وأن أبذل قصارى جهدي في العمل .. لكنني لم أستطع الإستمرار .. منذ الأسابيع الأولى لي في الغردقة وأنا أسمع وأرى ما يثبت لي أن كل شيء مباح مهما كانت درجة دنائته ونتانته .. هل تتخيل أن مستوى القذارة في مستشفيات الغردقة يصل إلى درجة سرقة الأعضاء من أجساد السياح بالإتفاق مع مرشدهم السياحي المسئول عنهم، لزرعها في أجساد أخرى يدفع أصحابها الملايين .. المشكلة أن الغردقة تهتم فقط بالحفاظ على المظهر الأنيق في كل شيء .. لكن النفوس - القابعة تحت هذا المظهر - تزداد قذارة وانحطاطا يوما بعد يوم .. وبالرغم من هذا فقد كنت صامدة أمام هذا الكم من القذارة التي تزكم الأنوف .. لكنني لم أستطع الصمود أمام فكرة الاستمرار في الغردقة بدونه!

كان صوتها مرتعشا وهي تقول عبارتها الأخيرة .. واغرورقت عيناها .. لقد أحبته بقوة وسمحت له أن يتغلغل داخلها وأن يندمج مع كل خلية تسبح في دمائها .. لذا فقد خلف وراءه جرحا لم يندمل حتى الآن ..

نظرتْ بثينة إلى طعامها بنظرة أقرب إلى التأفف .. يبدو أن "حموضة" الذكريات اللاذعة قد سدت شهيتها .. سألتها:

- هل تودين الإنصراف؟

نظرت حولها .. كان المكان قد بدأ يزدحم مما ضاعف من شعورها بالضيق .. فقامت وهي صامتة وتأبطت ذراعي بتلقائية وكأننا مخطوبان .. لنعود إلى المشي في شوارع وسط البلد .. بعد دقائق من المشي مزقت هي شرنقة الصمت التي لفتنا:

- بعد عودتي من الغردقة محملة بعار الفشل أمام نفسي .. تقدم لي ذلك الشاب الذي كان برفقتي في عيادة الجراحة .. بدا لي شابا مثقفا متفتح العقل .. كنت في حالة من انعدام الوزن .. وكانت كل الأشياء بالنسبة لي سواء .. فلم أمانع بالرغم من اعتراضي على الإرتباط بتلك الطريقة .. وقرأنا الفاتحة .. وألبسني "الدبلة" في جلسة عائلية خلتْ من اللهو والرقص والغناء بسبب دماغ أخي المتزمتة .. وحددنا موعد الشبكة .. لكن الشعور بالغش والخداع كان يتلبسني كلما التقيت به .. فقررت أن أخبره بالحقيقة .. وربما كنت أريد الفكاك من هذا الارتباط الذي لم اختره .. لا أدري بالضبط .. استقبل الحقيقة بكلام كثير عن حرية المرأة وأن المرأة بالنسبة له لا تختصر في غشاء البكارة .. وأننا لسنا في الجاهلية الأولى .. إلى آخر تلك العبارات التي يرددها المثقفون عمال على بطال دون أن يؤمنوا بها حقيقة .. لكنني كنت أشعر أن هناك صراع في داخله بين رغبته في المواصلة .. أو إنهاء المسألة برمتها .. وكانت مسألة السرطان تلك فرصته الذهبية التي استغلها ليسقط من نظري إلى أسفل سافلين .. كان بإمكانه أن يكون صريحا معي .. وأن يُنهي ارتباطنا للسبب الحقيقي .. عندها كنت سأحترم صراحته وإيمانه بقناعاته الشخصية .. لكن أن يتظاهر

بالتحرر الفكري منتظرا حدوث تلك المشكلة المرضية لينهي ارتباطنا .. فهذا منتهى الانحطاط .. ثم ماذا لو اتضح أنني لم أكن مريضة .. هل كان عندها سيتورط - بسبب جبنه - في زيجة تحيل حياته - وحياتي - جحيما كلما نظر في عينيّ وتذكر أن جسدي كان مرتعا لرجل آخر قبله .. الحسنة الوحيدة التي فعلها أنه لم يفش سري، بل وتحمل كل اللوم الذي صبته عليه الأسْرَتَيْن، لعدم وجود سبب حقيقي لفسخ الخطوبة.

صمتت قليلا قبل أن تقول ملحنة كلماتها:

- وهي دي .. حكايتي مع الزمااان ..

مثلت بيدي وكأنني أعزف على الجيتار:

- تي .. را .. را .. رااااا .. را ...

- هل تسخر مني؟!

هززت رأسي وضحكت قائلا:

- أي نعم ..

فرسمتْ تكشيرة جذابة على وجهها:

- زعلانة منك ..

- طيب أصالحك إزاي أيتها الطفلة المشاغبة؟

- عايزه حاجه حلوة ..

طفلة تتأبط ذراعي وكأنني أبوها .. تلك هي بثينة .. والمدهش أنني فرحان بسلوكها الطفولي الذي يبعث في داخلي مشاعر جميلة .. أنا الذي اعتدت دائما أن أكون جادا في كل شيء .. أصبحت فجأة منغمسا في حالة من المرح والدعابة .. فما هذا التغيير الذي طرأ عليّ ..

أخرجني صوتها من شرودي:

- هات لي "إكلير" (Éclair) .. اللي بنكهة البندق .. عشان خاطري .. عشان خاطري ..

قالتها بإلحاح كما يفعل الأطفال، فتوقفنا عند كشك صغير يقف بحياء وسط عمارات وسط البلد. واشتريت لها ما طلبت. خطفتْ كيس الحلوى من يدي في لهفة، وفتحته لتخرج منه قطعة "إكلير". فضتها من غلافها الأنيق قبل أن تضعها في فمها بتأني كأنما تقبل طفلا رضيعا! أغمضت عينيها، وصدرت عنها آهة خافتة منتشية بحلاوة الكراميل!

- منتهى اللذة !

قالتها وهي لا تزال مغمضة عينيها .. وظلت تمتص قطعة الـ "إكلير" حتى ذابت تماما .. فقالت والفرحة تكسو ملامحها:

- كانت زميلاتي تطلقن علي: "فتاة الإكلير" .. وأحيانا "مدمنة الكراميل" .. فأنا مستعدة أن أُحْرَمَ من كل أطعمة الدنيا إلا "الإكلير" ! .. وكثيرا ما يراودني حلم أكون فيه وسط كومة ضخمة من قطع "الإكلير" الغنية بالكراميل! تلك هي الجنة بالنسبة لي!

قلت متهكما:

- كان الأحرى أن يطلقن عليك: "طفلة الإكلير" ..

قالت بشراسة الأطفال:

- أنا في نظرك .. طفلة؟!

- كنت تلحين عليّ كالأطفال حتى أشتري لك الحلوى .. لكنك والحق يقال تستحوذين علي بطفولتك هذه ..

ابتسمت وهي تفض قطعة "إكلير" أخرى من غلافها .. ودخلت في حالة النشوة التي تبثها حلاوة الكراميل المعجون بنكهة البندق ..

مددت يدي نحو كيس "الإكلير" .. فضمت قبضتها بسرعة وحزم على فوهة الكيس لتمنع أصابعي من التسلل داخل الكيس .. قالت وفي عينيها نظرة الطفلة المتنمرة:

- انسى .. كان غيرك أشطر !

- بجد .. انتي "عيّله" ..

- ماشي يا سيدي .. "عيّله" .. بس "إكليرتي" .. لأه ..

كنا قد وصلنا إلى الشارع المنشود. اعتصرتُ ذهني لأتذكر رقم العمارة. وبعد أن تذكرت، بدأنا رحلة الصعود للدور الثالث، حيث تقيم السيدة ليليان صالونها الثقافي العريق.

* * *

استقبلتني السيدة ليليان بترحاب .. سألتها عن صحتها فأجابتْ:

- صحتي بمب طول ما ده - وأشارت لدماغها - لسه شغّال.

ونظرتْ إلى بثينة نظرة متفحصة قبل أن تبتسم لي قائلة:

- ذوقك حلو يا دكتور يوسف ..

انتبهت إلى أنني لم أعرفها برفيقتي .. قلت:

- هذه بثينة .. صديقتي ..

قالت ليليان وهي تصافحها بود كأنما تربطهما معرفة قديمة:

- تشرفنا يا "بوسي" ..

وأكملت هي مهمة التعارف:

- وأنا ليليان وجدي .. صاحبة أعرق صالون ثقافي بوسط البلد ..

فقالت بثينة بابتسامة:

- تشرفنا ، مدام ليليان ، وشكرا لإطرائك السابق ..

- ليليان .. نادني ليليان أو "لِيلِي Lilly" .. دون ألقاب.

وبعد أن انتهت فترة المجاملة والترحيب .. قادتنا السيدة ليليان إلى الداخل.

- ماذا تفضلان .. الجلوس في الصالون .. أم في "التيراس"؟

اختارت بثينة التِراس .. فأدخلتنا إلى هناك .. كان التراس واسعا تزينه مجموعة من النباتات المتسلقة الخلابة .. وإضاءته الخافتة مناسبة لخلوة ثقافية شاعرية! .. وفي الركن القصي من التراس حيث تزداد الإضاءة خفوتا توجد "أرجوحة" مبطنة بفرش مخملي وثير ..

قالت ليليان وقد انتبهت إلى أن الأرجوحة قد لفتت أنظارنا:

- ألوذ إلى هذه الأرجوحة طلبا للإسترخاء .. والشرود في بحر الذكريات الجميلة.

دعتنا للجلوس على الكراسي المصنوعة من الخوص وهي تقول:

- هل تعلمان أن أبرز الشخصيات الثقافية في الخمسينات والستينات كانت حريصة على حضور هذا الصالون منذ أنشأه أبي المفكر الكبير "وجدي إلياس" .. كان لهذا الصالون دوراً بارزاً ومشهوداً في إثراء الحركة الأدبية .. وكان انعكاسا لواقع الحركة الثقافية في المجتمع آنذاك .. فقد كان أبي حريصا على أن يكون صالونه بمثابة مركز ثقافي يتناول مختلف القضايا، خصوصا في ظل غياب وسائل الاتصال الحديثة، ويقوم بتسليط الضوء على الأنشطة

الفكرية المختلفة ... ونشأتُ أنا في هذا الجو الثقافي العريق لأواصل المسيرة التي بدأها أبي .. ومازال هذا الصالون قِبْلة لأرقى فئات المجتمع من المثقفين والكتاب والدارسين.

لفنا الصمت لحظات قبل أن تقول:

- أريد أن استشيرك طبيا يا عزيزي ..

- تفضلي ..

قلتها ونظري لا يزال معلقا بالأرجوحة الوثيرة التي تغريني بالإسترخاء داخلها .. قبل أن أحول نظري للسيدة ليليان مراعاة للذوق.

- في الآونة الأخيرة زادت التجاعيد في وجهي كثيرا كما ترى .. ولم يعد المكياج يفلح في مداراتها .. واللي زاد وغطى تساقط شعري بالرغم من عنايتي الشديدة به .. فهل لهذا علاقة بجلسات الغسيل الكلوي.

لم أكن قد قرأت في هذا المجال كثيرا .. لذا كانت معلوماتي فيه غير كافية .. أجبتها:

- من الوارد أن ينهك الغسيل الكلوي الجسم كله .. وبالتالي تصبح الخلايا المنهكة غير قادرة على مقاومة عملية الأكسدة، مما يؤدي إلى موت الخلايا السريع .. فيتساقط الشعر وتزداد التجاعيد عمقا .. ويمكنك التغلب على هذا بالحصول على جرعات عالية من مضادات الأكسدة (anti-oxidants) .. في صورة كبسولات ودهانات للوجه والشعر .. لتعمل جميعا كخط دفاع ضد العوامل الهدامة التي تؤدي إلى موت الخلايا.

- فلتصف لي إذاً بعضا من تلك المضادات .. حتى أبدأ في استعمالها على الفور ..

وضغطتْ زرا يتدلى من الحائط المجاور للأرجوحة .. لتحضر خادمتها الآسيوية في أقل من دقيقة:
- احضري ورقة وقلما من فضلك.

وكتبتُ لها أفضل نوعين - في حدود علمي - من الكبسولات المضادة للأكسدة .. بالإضافة إلى "كريم" مضاد للتجاعيد (anti-wrinkles) يحتوي على نسبة عالية من فيتامين E ومادة الـ Q۱۰ المؤخرة للشيخوخة .. فشكرتني بحرارة .. وعاد الصمت بعدها يلفنا من جديد .. قبل أن يقطعه صوت جرس الباب .. فاستأذنتْ السيدة ليليان لترحب بالقادم الجديد .. وما ان انصرفت حتى قالت بثينة باهتمام:
- هل لك أن تحدثني بتفصيل أكثر عن مضادات الأكسدة ..

- تعلمين أن الجو في المدن المزدحمة يكون ملوثا بشدة .. هذا الجو الملوث يحتوي على ما يسمى الشوارد الحرة أو الهائمة (Free Radicals) .. هذه الشوارد الهائمة تلتصق بخلايا البشرة .. وتتحد بها .. ونتيجة لهذا الإتحاد غير المطلوب تحدث عملية الأكسدة (Oxidation) التي تؤدي إلى موت الخلايا .. مما يؤدي إلى ظهور الإرهاق وعلامات الشيخوخة المبكرة على البشرة .. وعلاج هذه المشكلة يكون بمنع عملية التأكسد تلك .. عن طريق تناول جرعات مكثفة من مضادات الأكسدة .. بكلمات أخرى .. مضادات الأكسدة تحمي الخلايا من الموت المبكر ..

وابتلعت ريقي الذي بدأ يجف من الكلام مضيفا:
- لهذا تظهر علامات الشيخوخة مبكرا على نساء المدن بينما تتأخر في الظهور على نساء الريف .. حيث يكون الجو أكثر نقاء وتقل وربما تنعدم نسبة الشوارد الهائمة ..

بدا في عينيها أنها تفكر فيما قلت .. ثم قالت:

- أرى أن كل شيء في حياتنا بحاجة إلى مضادات الأكسدة تلك .. لتحميه من التأكسد ثم الموت .. والعامل المؤكسد هنا هو المادة .. المال أصبح الآن غاية وليس مجرد وسيلة .. آه لو توجد مضادات أكسدة لحماية الحب والمشاعر الرومانسية الجميلة التي تموت بأسرع مما تولد .. الذكريات بحلوها ومرها التي ننساها مع ضغوط الحياة .. صداقاتنا التي تتهاوى بسرعة كأنما لم توجد أصلا .. حتى العلاقات الأسرية المفككة هي الأخرى بحاجة إلى مضادات الأكسدة لتحافظ عليها من الموت المبكر ..

وصمتت قليلا قبل أن تسألني بمنتهى الجدية:

- هل من الممكن علميا اختراع دواء مثل مضادات الأكسدة للحفاظ على مشاعرنا من التأكسد ومن ثم تأخير موتها المبكر؟!

أدهشتني نظرتها العميقة والمختلفة للحياة .. ووجدتني أسألها:

- هل هذه هي طريقة تفكيرك المعتادة .. أم أن الصدمات التي لطمتك الحياة بها هي ما يجعلك تجمحين بأفكارك هكذا؟!

أجابتني بنبرة مغلفة بالانفعال:

- المجتمع كله يدفعني إلى التفكير بطريقة غير طبيعية .. فالمجتمع نفسه ينظر للأشياء بطريقة "مريخية" عجيبة .. فلماذا تتعجب من أفكاري الجامحة ..

وأضافت وهي تحاول السيطرة على الانفعال في صوتها:

- مجتمعنا يختصرني كفتاة في غشاء البكارة .. لا كإنسان له عقل .. مجتمع وصلتْ به الدرجة من التدني أن يقيم الفتاة

بإجابة السؤال القذر: "هي مفتوحة ولا لأ؟" .. فإذا كانت عذراء فهي عفيفة وممكن اتخاذها كزوجة .. أما اذا كانت "مفتوحة" فهي لا تصلح إلا لخوض تجربة جنسية مثيرة ..

احمر وجهي خجلا من هذه الجرأة الصادمة .. لكنها لم تلتفت لهذا .. واصلتْ إفراغ شحنة الغضب المتراكمة بداخلها تجاه المجتمع:

- الأمر بالضبط مثل أن يسأل شاب صديقه الذي سبقه إلى مشاهدة فيلم سينمائي: "والفيلم ده قصة ولا مناظر؟"، في محاولة منه لتقييم الفيلم قبل أن يندم على نقوده المهدرة في فيلم لا يستحق! .. هذه هي الطريقة التي يتعامل بها المجتمع مع المرأة .. المرأة بالنسبة للرجل الشرقي اختصرتْ في غشاء البكارة .. المرأة في مجتمعنا مجرد "خُرْم" .. كل الصفات الأخرى المطلوبة في الفتاة من ذكاء وجمال وخلق وسلوك مهذب ورقي وقيم ومبادىء، لا تساوي في نظر المجتمع شيئا إذا كان غشاء البكارة غير موجود!

وأخرجتْ من حقيبتها قطعة "إكلير" مواصلة:

- الفتاة في المجتمع الشرقي أصبحت مثل قطعة "الإكلير" هذه .. لا بد أن تكون مغلفة حتى تشتريها ..

وانتزعت غلافها الأنيق بعنف وهي تقول:

- أما إذا كانت غير مغلفة بـ "غشاء" الطهارة والعفة، فإن أحدا لن يلتفت لها مع أنها هي هي نفس قطعة الإكلير .. وكثير من الفتيات في عصرنا هذا يعشن تجارب جنسية أثناء الدراسة الجامعية .. لكنهن يحافظن على بكورتهن .. ومع انتهاء الدراسة تنتهي فترة التحرر والعبث .. ليجلسن بعدها في بيوتهن في انتظار العريس الذي لن يعلم شيئا بالتأكيد عن تجارب خطيبته السابقة .. ولإتقان الدور ربما يرتدي بعضهن الحجاب .. فماذا يريد الشاب أكثر من هذا .. بنت بنوت ومحجبة .. يبقى يخلي في عينيه حصوة ملح ويتكل

على الله .. زيجة مباركة .. سمعونا زغروده على خيبته وخيبة المجتمع المتخلف الذي نعيش فيه!

لفنا الصمت لحظات، استطاعت خلالها أن تسيطر تماما على انفعالها .. قبل أن تواصل:

- المشكلة من وجهة نظري أننا نعيش الآن في مجتمع منحل أخلاقيا .. مجتمع يؤمن بالرشوة وانعدام الضمير .. مجتمع غشاش منافق .. مجتمع متكاسل عن العمل .. من الآخر واختصارا للشتائم: مجتمع بلا أي قيم أو أخلاقيات .. مجتمع لا يهمه سوى الشكليات .. مجتمع أكثر هشاشة من غشاء البكارة ذاته! .. البنت دي مغطيه شعرها .. الله على النور اللي بيطل من وجهها .. والبنت دي كاشفه شعرها ولابسه ع الموضة .. يبقى إخيي عليها السافلة المنحطة .. إلى جهنم وبئس المصير!! .. وفي مجتمع كهذا .. لا أهمية لغشاء البكارة .. فما أدراك لعل فتاتك المحجبة الشريفة اللي عينيها دايما في الأرض من الكسوف، قد قامت بترقيع غشاء بكارتها .. وربما ترك شباب الكرة الأرضية بصماتهم على جسدها دون أن تفقد عذريتها .. يا فرحتي بهذا النوع من الشرف! .... متى اذن يصبح لغشاء البكارة قيمة؟ .. عندما يصبح المجتمع صادقا مع نفسه .. مجتمع خالي من الغش والنفاق والرشوة والتزوير وانعدام الضمير .. مجتمع قائم على ركائز قوية من الأخلاق والقيم .. عندما يتحقق كل هذا .. وعندها فقط نستطيع أن نقول إن غشاء البكارة له أهمية .. أما الآن فهو لا يتجاوز كونه مجرد جزء من الجهاز التناسلي للمرأة .. يدرسه طلبة الطب - أمثالك - في مادة التشريح!! .... وبالرغم من أننا في الألفية الثالثة إلا أننا لم نستطع الخروج من سيطرة المجتمع الذكوري حتى الآن .. والمدهش أنني اكتشفت أن الذكور في مجتمعنا يخافون المرأة .. لذا فهم يسعون دائما لقهرها وكبتها وقمعها .. حتى في مسألة الجنس .. لا تأخذ حقها .. فالمرأة بالنسبة للرجل

أصبحت مجرد مبولة آدمية تصلح للإستمناء .. وليس من حقها أن تستمتع بالجنس كما يستمتع به الرجل!

تريثتْ قليلا لتلتقط أنفاسها المتسارعة:

- أنا أظن أن شهوة الأنثى الجنسية هي الأخرى بحاجة إلى مضادات الأكسدة التي حدثتني عنها .. حتى تحميها من الضمور والموت المبكر في ظل غباء الرجل الشرقي الذي لا يمنح المرأة حقها في الاستمتاع بنعمة الجنس .. وكأن الله قد منح حق المتعة للرجل فقط دون الأنثى .. و ....

بترت حديثها وهي تنظر إلي وجهي الذي بدا شاحبا .. فقد كنت مصدوما ومحرجا بشدة مما قالته هذه الفتاة التي تجاوزت جرأتها كل الخطوط الحمراء .. صحيح أنني أؤمن بمعظم ما قالته، لكنني لم أتخيل أبدا أن أسمعه من فتاة مثلها .. فأنا نفسي لا أجرؤ على البوح بأفكاري تلك أمام أحد .. لأنني أعرف جيدا أن كل من حولي يرفض مثل هذه الأفكار ويتمسك بالأفكار البالية المتعفنة التي لا تصلح إلا للتخلص منها في القمامة .. لقد وصلت بثينة إلى درجة الغليان .. فلم تعد تبالي بقيم المجتمع المتخلف الذي يلغي عقلها وكينونتها تماما .. مجتمع يصنفها في مرتبة أدنى لمجرد أنها فقدت عذريتها ..

قالت مقاطعة أفكاري:

- مين اللي واخد عقلك .. يتهنا بُه ..

أجبتها بابتسامة:

- لا شيء .. أنا فقط أحسدك على جرأتك .. مجتمعنا بحاجة إلى أمثالك حتى نتمكن من تغيير القيم والعادات البالية التي يتمسك بها المجتمع ويرفض التخلي عنها ..

هزت رأسها يمينا وشمالا وقالت:

- المشكلة ليست في تمسك المجتمع بتلك القيم أو العادات .. المشكلة الحقيقية الآن في ازدواجية المجتمع .. فنصف المجتمع لا يهتم بتطبيق تلك العادات السخيفة .. بل ويفعل

عكسها تماما .. لكن في الخفاء، أما في العلن فإنه يُظهر تمسكه الشديد بعادات مجتمعه .. وهذا حتى يتجنب المشاكل ... أما النصف الأخر فهو يطبق عادات المجتمع زي الألف .. لكنه في داخله يتمنى أن تواتيه الفرصة ليحطم تلك العادات التي تحاصره وتكبله وتخنقه .. وهناك فئة صغيرة بدأت تنمو لكنها لم تصبح قوية كفاية .. تلك الفئة تضرب عرض الحائط بعاداتنا السخيفة في وضح النار وعلى عينك يا تاجر ..

قلت مداعبا لأخفف من جدية الحوار قليلا:

- وأنت بالطبع تتزعمين تلك الفئة ... صح؟

- على فكرة .. الهزار مش لايق عليك ..

قالتها ضاحكة .. ثم انتبهت إلى أنها لا تزال ممسكة بقطعة الإكلير التي نزعت عنها غلافها .. فالتهمتها مستمتعة بنكهة الكراميل التي تذوب في فمها مخلفة شعورا رائعا ..

سمعنا جرس الباب مرة أخرى في هذه اللحظة .. ثم سمعناه مرة ثالثة بعدها بدقائق .. يبدو أن الضيوف بدأوا يتوافدون .. وبعد قليل لن يصبح التراس لنا وحدنا ..

اقترحت عليها أن ننتقل إلى الجلوس داخل الأرجوحة الوثيرة قبل أن يسبقنا أحد الضيوف إلى ذلك .. فقامت على الفور لتلقي بجسدها عليها وهي تطلب مني أن أحرك الأرجوحة ببطء .. فبدأت أحركها .. وأغمضت هي عينيها محاولة الإسترخاء .. قبل أن تفتح عينيها قائلة:

- ما رأيك لو نطلب شيئا لنشربه ..

وقبل أن أجيب كانت قد ضغطت الزر المجاور للأرجوحة لاستدعاء الخادمة .. التي تأخرتْ قليلا هذه المرة ربما لانشغالها بتلبية الضيوف بالداخل .. سألتها بثينة أن تقدم لنا مشروبا على ذوقها .. فانصرفت الفتاة على الفور .. يبدو أن ضغط العمل لا يعطيها الفرصة للرد ..

وبعد دقائق أحضرت لنا صينية عليها بضعة كئوس ممتلئة بأنواع مختلفة من العصير .. أخذنا كأسين لنرشفهما في استمتاع .. أنهتْ بثينة كأسها .. قبل أن تخرج قطعة "إكلير" أخرى .. فضت عنها غلافها .. قالت وهي تحركها أمام عينيّ:

- تريد أن تتذوق طعم السعادة؟

أومأت برأسي .. فقالت:

- إذن تفضل ..

ولكنها لم تعطها لي .. بل وضعتها على طرف لسانها .. فاجأتني تلك الحركة الجريئة .. فاضطربت قليلا وعيناي معلقتان بشفتيها الشهيتين .. ولم أفكر طويلا .. انقضضتُ على شفتيها اعتصرهما اعتصارا كما فعلت من قبل في الحلم .. وتذوقت طعم السعادة المختلط بنكهة الكراميل .. "قبلة بنكهة الكراميل" ! .. وظل لسانها يتلوى كالثعبان داخل فمي مشعلا في أعماقي المزيد من نار الرغبة والشهوة ..

شعرت بحركة عند مدخل التراس .. فخلصتُ شفتي من شفتيها وأبعدتها عني بحركة جاءت عنيفة .. والتفتُ للخلفَ لرؤية القادم .. فإذا به آخر شخص كنت أتوقع ظهوره في تلك اللحظة!

* * *

تركتُ صالون السيدة ليليان دون أن أشكر صاحبته على كرم الضيافة .. ولم تنتبه هي لخروجي الهادىء، فقد كانت منشغلة بضيوفها من المفكرين والشعراء والساسة وغيرهم من وجهاء المجتمع .. تسللتُ أنا وبثينة في هدوء .. كأننا لصان .. ومشينا في شوارع وسط البلد صامتيْن .. كنت أشعر بشيء من الضيق .. ليس لأن "مها" رأتني وأنا متوحد مع بثينة في تلك القُبلة الشبقَة .. ولكن لأنني حطمت صورة الشاب المثالي في نظرها .. لم أكن أمانع أن ننفصل لأي

سبب .. إلا هذا السبب .. فقد كنت أريد أن احتفظ بصورة الشاب المثالي في نظرها .. ولكنني أعرف مها .. ستكتم حزنها داخل قلبها ولن تخبر أحدا - حتى أعز صديقاتها - بما رأته ..

أنا الآن بحاجة للخروج من حالة المزاج العكر التي شملتني .. وثبت في ذهني فكرة الذهاب لذلك "البار" الذي أخبرني عنه "سامح"، والذي افتتح مؤخرا بأحد الشوارع الفرعية بوسط البلد .. لا أذكر الاسم لكنني أذكر العنوان ..... فلم لا أجرب؟

كانت بثينة صامتة .. وكان هذا أفضل .. ولو كانت قد حاولتْ أن تواسيني أو أن تعتذر عما حدث - متحملة الذنب مثلما يحدث في الأفلام العربية - لكنت ركلتها من حياتي للأبد .. فلا أطيق تلك الرومانسية الكاذبة ..

وصلنا للمكان المنشود .. فتح لنا الباب رجل الحراسة منتفخ العضلات، فدخلت وتبعتني بثينة دون أن تبدي اعتراضا .. جلسنا في ركن قصي من المكان الذي لم يكن به سوى عدد قليل من الزبائن .. فتلك الأماكن لا تزدحم إلا بعد العاشرة مساء ..

شاب آخر مفتول العضلات حضر ليسألنا عما نريد .. فعلقت ساخرا:

- هو أنا دخلت "بار" ولا صالة كمال أجسام ... ها ها ها ها ها ...

لم يعلق الشاب .. فقط ابتسم ابتسامة سمجة مكررا سؤاله عما نريد ..

- نبيذ أبيض ..

سألني بنفس الابتسامة المصطنعة:

- "بيور" ولا "مخلوط" ؟

- مخلوط ..

فنظر الشاب إلى بثينة متسائلا فقالت:

- وأنا مثله ..

فانصرف ليحضر لنا ما طلبنا .. وضعتْ يدها على كتفي وقالت:

- هل تريد أن ترى شيئا يروق لك مزاجك المتعكر؟

فنظرت لها نظرة تعني: هات ما عندك .. وتساءلتُ بيني وبين نفسي إن كان قد هيىء لها أن قطعة "إكلير" ستخرجني من حالتي المزاجية السيئة .. لكنها أثبتت لي أنها ليست بتلك السذاجة .. فقد أخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها .. وعبثتْ أصابعها بأزراره .. قبل أن تقدمه لي بابتسامة مغلفة بالخجل ...

كانت محقة .. تلك الصور تستطيع أن تلف دماغ أي رجل .. كما تلف دماغي الآن .. بالفعل كانت خلايا مخي تئز كالنحلة من فرط الإثارة التي أشعلتها الصور في داخلي .. وكانت هي تتابعني بعينيها .. وتتغير ملامح وجهها مع الانفعالات التي تبدو على وجهي كلما مضيت في المشاهدة أكثر .. كانت مجموعة كبيرة جدا من الصور .. بعضها التقطته بنفسها عن طريق تثبيت الكاميرا وتشغيل خاصية الـ (self-timer) .. وبعضها تشي زاوية التصوير فيها بأن هناك من التقطها لها .. ووجدتني أنسى "مها" رويدا رويدا كلما طالعتني صورة جديدة .. وخرجتُ تماما من حالة الضيق التي كادت تنغص علي ما تبقى من الأمسية التي بدأت للتو ..

أحضر الشاب مفتول العضلات زجاجة النبيذ الأبيض وزجاجة بها مياه فوارة لتخفيفه .. فتح الزجاجتين .. وصب بعضا منهما في كأسين على شكل زهرة "التيوليب" .. كانت أمي تعد لي الآيسكريم قديما في كئوس كتلك .. نفس الكئوس لكن المحتوى الآن اختلف كثيرا ..

وبدأت أشرب وأنا أعيد مشاهدة الصور كلما انتهيت منها .. وبعد أن فعل النبيذ مفعوله السحري في التأثير على

أدمغتنا .. وجدتها تضبط كاميرا المحمول على خاصية التصوير الذاتي .. بعدها وضعت المحمول عند طرف الطاولة من الناحية البعيدة عنا .. وبجرأة مازالت تدهشني وضعت يدها على كتفي وأمالت رأسها حتى شعرت بخصلات شعرها تداعب أذني ورقبتي .. هممت أن اعترض لكن الفلاش سطع فجأة .. فالتقطت المحمول لترى الصورة .. قبل أن "تتأتيء" قائلة بسخرية إنني اخترت التوقيت المناسب فعلا للإعتراض .. فقد بدوت كالأبله مفتوح الفم!

أشارت للشاب مفتول العضلات والذي بدت عضلاته أكبر مما كانت عليه بفعل النبيذ .. طلبتْ منه أن يلتقط لنا كذا صورة .. وقبل أن اعترض، وضعت إصبعها علي شفتيّ وغمزت للشاب الذي التقط الصورة على هذا الوضع .. ثم ضمتني إليها وألصقت شفتيها بخدي لتبدو في وضع القبلة، ليلتقط صورة أخرى على هذا الوضع. كل هذا وأنا مستسلم!

انصرف الشاب، لتطلعني هي علي الصور .. ووجدتني أطلب منها بجرأة - اكتسبتها تحت تأثير السكر - أن تأتي معي إلى شقتي .. لتقضي معي هذه الليلة التي بدأ لونها يميل للإحمرار! .. أبدتْ عدم تحمسها للفكرة في البداية .. لكنها إزاء نظرة الرغبة الجامحة في عيني وافقتْ .. وذهبت بها إلى شقتنا القديمة في حلمية الزيتون .. تلك الشقة التي شهدت الفترة الأولى في زواج أبي وأمي قبل أن ينتقلا إلى مصر الجديدة تاركين الشقة لي لأمارس فيها كل أشكال الحرية التي يتمناها أي شاب .. كانت مستسلمة تماما وأنا أجرها من يدها إلى الشقة .. ولم أدر بالضبط هل كان استسلامها هذا بسبب تأثير النبيذ أم لرغبتها في خوض مغامرة ربما تعينها على التخلص من ذكريات حبيبها النذل .. أدخلتها غرفة النوم مباشرة .. فألقت بجسدها على السرير متأوهة في إرهاق مصطنع ..

اقتربت منها محاولا تقبيلها لكنها راوغتني قائلة:

- عايزه أنام .. تصبح على خير ..

ولكن ألاعيب المرواغة تلك لم تستمر طويلا فقد قهرتها الرغبة مثلما قهرتني .. لذا فقد التحم جسدانا في عناق طويل .. كان أداؤها مذهلا نقلني إلى الجنة .. شعرت أن كل خبراتي الطبية السابقة واللاحقة لا تساوي شيئا بالمقارنة بهذه اللحظة .. وبدأ عقلي يغيب في متاهة سحيقة لا يسمع ولا يعي فيها سوى صوت انفعالاتها وتأوهاتها الشبقة ....

ثم انتهت تلك الليلة بنوبة هيستيرية من البكاء!!

* * *

الجزء الثالث

الصدمة

لا أعرف حتى الآن كيف استطعت الذهاب إلى المستشفى في اليوم التالي .. كانت دماغي ثقيلة كأنما تزن طنا .. وكانت الحموضة التي خلفها النبيذ تحرقني بشدة عند "فم المعدة" .. بدت الدهشة على وجه الموظفة المسئولة عن الحضور والانصراف من نظرة الخمول والتوهان المطلة من عيني ..

كان عقلي مشغولا بأحداث الأمس التي انتهت بنوبة البكاء الهيستيري التي انخرطت فيها بثينة .. حتى إنني خشيت أن يستنفر هذا جهازها العصبي السيمبثاوي (sympathetic nervous system) .. وهذا بدوره كان سيزيد الضغط بشدة على عصبها الحائر (vagus nerve) مما قد يؤدي إلى انقطاعه عن توصيل الإشارات العصبية .. لتدخل نتيجة لهذا في حالة فقدان للوعي (fainting) قد تستمر لساعات طويلة ..

حمدت الله أنني كنت قد تركت بعض عينات الأدوية في الشقة .. فاخترت منها دواء لضبط الحالة المزاجية (mode stabilizer) .. لأعطيها منه قرصا .. ابتلعته بجرعة ماء كبيرة .. قبل أن أضمها إلى صدري في محاولة لتهدئة أعصابها المنفلتة ..

كانت ليلة غير عادية حقا !

دخلت إلى عيادة الطوارىء كأنما أدخلها للمرة الأولى .. ليدهمني شعور غريب بالضيق لم أعرف له مبررا .. وشعرت بالقرف ورائحة الدماء المختلطة بالمخدر تتسلل إلى أنفي .. وشعرت لبرهة أنني لا أنتمي لهذا المكان ..

سلمتُ على سامح الذي كان يقضي نوبتجية المساء .. أخبرني في إيجاز بالحالات التي حضرت إلى الطوارئ خلال نوبتجيته، ومن انتقل منها إلى وحدة الرعاية المركزة .. كنت استمع إليه دون تركيز .. لكنه لم يهتم .. بدأ يغير ملابسه استعدادا للإنصراف ..

ألقيت بجسدي المرهق فوق السرير الضيق داخل كشك الجراحة الملحق بقسم الطوارئ .. وتمنيت أن يمر اليوم دون حالات صعبة .. فلست في أفضل حالاتي .. وربما تسببت في مصيبة إذا مارست العمل وأنا في هذه الحالة من التعب وفقدان التركيز ..

وعادت صورة بثينة - وهي تبكي - للظهور أمامي ..

اكتشفت أنها بالرغم من ثوب الفتاة المتحررة الذي تلبسه، مثلها مثل أي بنت .. تريد الاستقرار في ظل رجل يحبها ويعاملها معاملة حسنة .. سقطت القشرة التي تغلف نفسها بها لتظهر بثينة الحقيقية .. بثينة التي تفكر مثل كل البنات .. بثينة التي تريد بيتا وأطفالا .. بثينة التي لا تتخيل أن تتخطى الثلاثين وهي بعد عزباء .. بثينة التي تخشى أن تحمل يوما لقب "عانس" .. ذلك اللقب الذي يبث الرعب في قلب أي فتاة كأنما العنوسة عار أقسى وأمر من عار الشرف!

شعرت بوخز من ضميري .. وأنبت نفسي بشدة على انسياقي وراء شهوتي .. استغللت ضعفها وهشاشتها التي خلفتها صدمات الحياة المتوالية لأقتنص لحظات من المتعة .. كانت هشة للدرجة التي قد تدفعها لعمل أي شيء .. لذا لم تمانع أبدا، وانساقت هي الأخرى وراء جنون اللحظة .. بعدها ذهبت السكرة وجاءت الفكرة .. فانهارت باكية ومرددة كم أنها رخيصة .. ظلت تردد في هيستيريا: "أنا رخيصة .. أنا سافلة .. أنا منحطة"، حتى كادت تغيب عن الوعي!

حاولت أن أطيب خاطرها بأن ألقي باللوم كله علي .. فقلت لها إنني أنا المخطيء .. وإنني ما كان ينبغي أن استغل

ضعفها .. وما كان ينبغي أن أوصلها لحالة السكر البيّن .. مما أدى إلى تطور الأمر وانتهاءه بنا في الشقة نلعب لعبة الخطيئة ..

أفقت من خواطري على الصوت المميز لسارينة الإسعاف .. هيهات أن يمر اليوم هنا في هدوء .. ولكن لا بأس .. فأنا الآن بحاجة للخروج من بحر الأفكار الذي تضربني أمواجه بلا رحمة ..

* * *

وانتهى اليوم الحافل بالحالات أخيرا .. وعدت إلى البيت.

كانت أمي قد أعدت لي عشاء شهيا .. لكن شهيتي لم تكن حاضرة .. ربما بسبب استمرار الحموضة اللاذعة التي خلفها شرب النبيذ حتى الآن .. فاعتذرت لها بأنني منهك جدا ولا أفكر في شيء سوى النوم .. لكنها أصرت أن آكل أي شيء .. على الأقل عبوة زبادي صغيرة .. فنفذت ما طلبت .. ثم أغلقت باب غرفتي علي .. وأخرجت علبة السجائر التي أخفيها في أحد أدراج المكتب .. وأشعلت سيجارة .. لا أدخن إلا عندما أكون تحت ضغط نفسي ..

فتحت "اللاب توب" .. ظللت أحدق إلى شاشته قليلا قبل أن أفتح متصفح الإنترنت .. ولجت إلى صفحتي على الـ Facebook .. لأجد عدد كبيرا من الأخبار والرسائل وطلبات الإنضمام إلى جروبات كثيرة ومتنوعة .. لم أجد الفرصة لدخول الفيس بوك منذ بدأ شهر الطوارىء .. لذا فقد تراكمت كل تلك الإخطارات على صفحتي .. لكنني لم التفت لأي منها .. عدا إخطار واحد كان يتعلق بـ "مها":

"Maha changed her status"

فالفيس بوك يتيح لك مشاركة حالتك المزاجية أو العاطفية مع الآخرين في هذا المجتمع السايبري الخالي من لمسات الحياة الحقيقية ..

أحيانا أشعر أن الشبكة العنكبوتية تسيطر علي وتجبرني على البقاء في هذا الفضاء السايبري لساعات طويلة .. كأنما هي قبضة فولاذية تلتف حولي .. وتزداد إحكاما عليّ كلما حاولت الفرار!

قرأت ما كتبته مها عن حالتها:

"كنت أقرأ كثيرا قصصا وروايات تتحدث عن الحبيب الخائن .. وما يتركه من جرح غائر في قلب حبيبته .. لكنني لم أتخيل أبدا أن أكون أنا بطلة إحدى تلك القصص في يوم من الأيام .. ولم أتخيل مرارة الألم إلا عندما نفذت السكين إلى داخل قلبي مخلفة جرحا لا يندمل".

مازالت هذه الفتاة متعلقة بأهداب الرومانسية في هذا الزمن الرديء .. وها هي تستمتع بلبس ثوب الضحية المطعونة في قلبها بخنجر الخيانة .. كل الفتيات يعشقن هذا الشعور .. شعور الضحية .. كأنما هذا يزيدهن أنوثة أو جاذبية .. أو لعله شيء مقدس يجب أن تفعله أي فتاة تحترم نفسها!

حركت الفأرة للأسفل لتتحرك معي الصفحة .. كانت هناك تعليقات كثيرة على حالة مها "الفيس بوكيّة" .. منها ما هو هزلي على غرار: "قولي لي مين اللي عمل فيكي كده وأنا أوريه النجوم في عز الضهر!" .. أحد ظرفاء الفيس بوك وضع تعليقا أضحكني رغما عني: "هو فين بس اللي جرحك .. شاوري لي عليه وأنا اسخطهولك قرد!!!" .. وتخيلت نفسي وقد وضعت صورتي الجديدة على الفيس بوك وتحتها تعليق موجز: "القرد الذي كان طبيبا!!".

التعليق الوحيد الذي اتخذ سمت الجدية كان من صديقتنا المشتركة "رحاب" .. وهي من نفس دفعة الكلية لكنها تخلفت

عن سنة الإمتياز بسبب رسوبها في السنة الدراسية الأخيرة لظروف مرضية ألمت بها .. كتبت رحاب تعليقا مواسيا لصديقتها الحميمة .. وأخبرتها بمنتهى العقل أن النسيان يعالج أعتى جروح الزمن .. المسألة مسألة وقت فحسب.

هذا يعني أن مها قررت أن تتركني دون أية مناقشة .. لكنني لن أقبل بهذا .. لا بد وأن نتناقش .. فماذا لو أنني أخطأت .. نزوة وانتهت .. ولن تتوقف الحياة .. فلا داعي لأن تعيش دور الضحية أكثر من اللازم ..

أخرجني صوت المحمول من لجة أفكاري .. قرأت اسم بثينة على شاشته التي ظلت تضيء وتنطفيء .. كانت قد حصلت على رقمي ونحن في وسط البلد .. تجاهلت الرنين الملح حتى توقف .. ليس لدي الاستعداد للاستماع لوصلة من البكاء و"النهنهة" بسبب ما وقع بيننا بالأمس .. عادت نغمة الإتصال تتصاعد من جديد .. لن تيأس هذه الفتاة بسهولة .. أنا عارفها .. ضغطت زر إنهاء المكالمة حتى تفهم أنني مشغول، قبل أن أضع المحمول على الوضع الصامت .. ولتضرب بثينة بدماغها عرض الحائط!

أطفأت السيجارة بعصبية في الطفاية التي امتلأت بأعقاب السجاير .. أشعلت سيجارة أخرى وأنا أفكر في وضع تعليق على حالة مها "الفيس بوكيّة" .. لكن المحمول اهتز في هذه اللحظة معلنا استلامي رسالة .. فتحت صندوق الرسائل الواردة .. كانت الرسالة مختصرة ولكنها معبرة: "يعني عشان خلاص أخدت اللي انت عايزه مني .. تتجاهلني بالشكل ده؟!".

ارتسم شبح ابتسامة على شفتيّ بالرغم من أن مضمون الرسالة قد كدّرني .. فها هي بثينة أيضا تعيش دور الضحية بإتقان .. ولعلني لا أجانب الصواب إذا قلت إنه لا توجد فتاة على وجه الأرض لا تجيد لعب هذا الدور .. فالبنت المصرية ترى أمها وهي "تمارس" دور الضحية المسكينة

المقهورة التي يفرض الأب وصايته عليها ويفتعل من أجل إثبات قوته المشاكل والمشاجرات .. ليعود بعدها الأب الذي يرق قلبه لمصالحة الأم بقبلة على رأسها ويديها - وربما قدميها - مقدما فروض الولاء والطاعة .. هكذا تتعلم الفتاة منذ الصغر كيف أن "المسكنة" والتذلل والخنوع ولعب دور الضحية هي كلها الطريق لقهر الرجل وإخضاعه!

فلأترك أمر هذه الفتاة "المختلة" للغد ..

أغلقت المحمول ووضعت اللاب توب على وضع الـ standby كعادتي .. لعلني أستيقظ فجرا لأسبح في بحر الشبكة العنكبوتية .. ورميت بجسدي على السرير محاولا جلب أطراف النوم ..

* * *

ذهبت في اليوم التالي للقاء بثينة، التي طلبت أن يكون اللقاء في نفس "البار" الذي ذهبنا إليه بوسط البلد .. علقت ساخرا:

- ألم تتعظي مما حدث أول أم، بعد أن ذهبت الخمر بعقولنا؟

فأجابتني بصوت تغلفه الرغبة:

- وما أدراك لعلني أريد أن أكرر تلك التجربة مرة أخرى؟

"يا بنت الـ ......" ، قلتها في نفسي .. فعلا يتمنعن وهن الراغبات .. طيب كان لزومه إيه بقى البكاء والدموع ولعب دور البنت الحزينة على الحال الذي وصلتِ إليه؟! .. عكرتِ مزاجي أيتها الشيطانة بعد أن حلقنا في سماء المتعة الخالصة!

وصلت إلى المكان وكلي شوق لليلة مثل التي قضيناها من قبل .. وكانت هي ترتدي فستان سواريه أسود يكشف أكثر مما يستر .. وقادتني إلى غرفة في عمق المحل وهي

تهمس في أذني: "هذه الغرفة مجهزة خصيصا لراغبي المتعة الخالصة" .. ثم غمزت لي بعينها في إشارة لا تحتاج إلى تفسير .. فارتفع حاجباي في دهشة .. هكذا وبكل صراحة .. أو للدقة بكل بجاحة!!

بدأت تخلع عني ملابسي بطريقة مثيرة .. قبل أن تدفعني بعنف فجأة، لأسقط على الأرض مصدرا آهة مكتومة .. نظرتُ إليها في دهشة، فأصدرتْ صوتا يشبه فحيح الأفعى، قبل أن تفتح فمها .. لأفاجأ بأن لسانها قد استطال وتشكل في صورة أفعى ذات لون أسود حالك! انقضت تلك الأفعى عليَّ وسط حالة الذهول التي شملتني .. وفي طرفة عين كانت قد التفت حول رقبتي وبدأت تعتصرها ... و ......

واستيقظت من النوم مطلقا صرخة مكتومة !

قمت إلى المطبخ لأرتشف جرعة ماء مثلج .. لم أستطع النوم بعدها مباشرة .. ولم أجد في نفسي الرغبة في تصفح الانترنت .. فأمضيت الوقت في قراءة رواية بعنوان "تغريدة البجعة" للمبدع مكاوي سعيد .. كانت بحق تحفة أدبية .. ووجدت تشابها في بعض الأفكار بيني وبين بطل الرواية.

واصلت القراءة دون أن أشعر بالوقت .. حتى تسللت على استحياء أولى خيوط النور إلى غرفتي .. وضعتُ الرواية على الكومود بجانبي وأغمضتُ عينيَّ محاولا أن اخطف ساعة من النوم قبل أن أذهب للمستشفى.

لكنني لم أستطع النهوض في الموعد .. كنت أشعر أن عظامي أصبحت مثل أعواد الكبريت .. التي تنكسر تحت أقل ضغط .. وعندما تحاملت على نفسي ووقفت شعرت أن دماغي تشدني للأرض كبطن امرأة حبلى .. فألقيت بجسدي على الفراش مرة أخرى .. ثم التقطت المحمول واتصلت بـ "عصام" الذي كان محموله غير متاح .. لا مفر إذن من أن أطلب من "سامح" أن يحل محلي .. لقد أثقلت عليه كثيرا في الفترة الماضية لكن واثق أن صداقتنا ستجعله يتفهم ظروفي

.. طلبت منه أن يحل محلي على أن آخذ أنا نوبتجيته التالية .. وهذا يعني أنني سأقضي بعيادة الطوارىء نوبتجيتين متتاليتين.

ذهبت إلى العمل مساء وقد حصلت على كفايتي من النوم .. كان ذهني متيقظا .. ومستعدا لفك طلاسم أي حالة .. في حين بدا سامح منتفخ العينين مهووش الشعر من أثر الإرهاق .. لم أعلق على شكله كعادتي معه في مثل تلك المواقف .. فسيكون هذا حالي غدا مساء بعد أن أقضي ٢٤ ساعة من العمل المتواصل.

لم تتبق لديه أية طاقة حتى للكلام .. فلم يوجز لي تقريره عن الحالات التي انتقلت من الطوارىء للأقسام الداخلية .. لكنه قال وقد بدا أنه تذكر شيئا فجأة:

ـ قبل أن أنسى .. حضرت فتاة إلى العيادة وسألت عنك .. أظن أنها نفس الفتاة التي زارتك من قبل .. لكنني لا أستطيع الجزم .. فقد كانت ترتدي نظارة شمسية ضخمة أخفت نصف وجهها.

تثائب بقوة حتى ظننت أن فكه السفلي سينفصل عن رأسه .. قبل أن يقول وهو يفرك عينيه بقوة كأنما يهرس حبتي فول:

ـ وسألتني عن موعد النوبتجية القادمة .. لتتمكن من لقاءك.

ها قد بدأنا لعبة المطاردة !

ما كان ينبغي أن انساق وراء شهوتي أبدا .. لكن الندم لن ينفع الآن.

أومأت له شاكرا توصيله الرسالة .. قبل أن أدخل "الكشك" لأبدل ثيابي .. بعد أقل من دقيقتين سمعت طرقات خفيفة على الباب .. ليتبعها دخول الممرضة قائلة:

ـ لديك زائرة .. اسمها بثينة.

أشرت لها بمعنى: أدخليها .. فدخلت بثينة .. كانت ترتدي تي شيرت stomach يكشف جزءا من بطنها .. وبنطلون برمودا يظهر سمانتي الساق المخروطتين .. أما شعرها فقد غيرت لونه إلى الأحمر الذهبي وغيرت تسريحته ليصبح مموجا أو ما يطلق عليه مصففي الشعر: curly .. وخطر لي أنها مثل الأفعى التي روعتني في الحلم بالأمس .. تغير جلدها ولونها حتى تتمكن من اصطياد فريستها!

انتظرت حتى انصرفت الممرضة، لتسلم علي .. حاولت أن تقبلني على خدي لكنني ابتعدت بجسدي للوراء .. فتعكرت ملامحها .. فقلت: "نحن في المستشفى .. وعليك أن تحترمي قدسية المكان" .. استندت على الجدار وهي تقول وصوتها لا يخلو من التهكم:

- كنت سأقبلك على خدك فقط .. ولا أظن أن قبلتي هذه ستدنس المستشفى الطاهر!

- ماذا تريدين يا بثينة؟

- ماذا تعني بسؤالك؟ ألسنا صديقين .. أم أنني كنت بالنسبة لك شريكة فراش قضيت وطرك منها قبل أن تدير لي ظهرك وتمضي؟!

كان نبرة الانفعال تعلو في صوتها .. وخشيت أن تسمعها إحدى الممرضات .. عندها ستصبح قصتي - أو للدقة فضيحتي - هي حديث الساعة في قصر العيني .. قلت محاولا إنتقاء كلماتي:

- بثينة .. أنا أقدرك كصديقة .. واحترم عقليتك المتفتحة .. لكنني أشعر أننا تسرعنا .. بل تهورنا في دخول المنطقة المحظورة .. كان ينبغي أن نفكر وندرس الموقف على كل الوجوه.

وتجرأت أكثر:

- لا أستطيع الاستمرار في هذه العلاقة يا بثينة.

كانت تنظر لي بعينين مثل عيني اللبؤة التي تستعد للإنقضاض على ضحيتها .. لان صوتي وأنا أقول محاولا تلطيف الجو:

- أنت فتاة طيبة .. وصديقة اعتز بها .. ولا تنسي أنني وقفت إلى جانبك من قبل عندما تركك خطيبك بمنتهى النذالة.

ولا أدري بالضبط ما الذي دفعني لقول المقطع الأخير من عبارتي .. فقد كنت كمن جذب فتيل القنبلة .. انفجرت بثينة فيّ قائلة:

- هذا يعني أنك كنت تأخذ حقك مقابل رعايتك الطبية لي .. عامة مش غريبة على الدكاترة .. فقد قرأتُ كثيرا عن الأطباء اللذين قبض عليهم بتهمة ممارسة الجنس مع مريضاتهم .. ولتعلم جيدا أنني لم أفتح ساقيّ لك هكذا .. دون مقابل.

حدجتها بنظرة نارية .. وارتعشت أصابعي من فرط العصبية .. أيتها السافلة المنحطة .. كيف تجرؤين على قول شيء كهذا.

تمادت قائلة:

- هلم .. اشتمني .. أو اصفعني على وجهي .. دفاعا عن نفسك وعن أقرانك اللذين لوثوا سمعة الطب في مصر .. هلم أيها الشريف العفيف.

كدت أضربها بالفعل .. لكنني انتبهت فجأة إلى ما تقودني إليه .. إنها تريد أن تفتعل مشهدا كما يقول الغربيون (she wants to make a seen) .. تريد أن تسبب لي مشكلة بل ربما فضيحة في مكان عملي .. والممرضات هنا لسن بحاجة إلى توصية لنقل الأخبار خاصة المتعلقة بمثل تلك الأمور الحساسة .. أنا أعرف ما سيحدث .. ستكثر النظرات الخبيثة وحوارات النميمة ومصمصة الشفاة على الطبيب السافل المنحط الذي يغرر ببنات الناس .. ستموت سمعتي المهنية قبل أن تولد ..

سحبت نفسا عميقا في محاولة لتهدئة أعصابي .. لكن الرعشة ظلت تسيطر على جسدي كله .. سألتها عن المقابل الذي تريده ..

وكان طلبها غير متوقع بالمرة !!!

*   *   *

مرت فترة النوبتجية وأنا في حالة عدم اتزان .. كنت أعمل بديناميكية .. كان عقلي مشتتا .. ولولا تيقظ الممرضات حولي لارتكبت أخطاء لا يقع فيها طالب في السنة الأولى!

اتفقت وبثينة أن نلتقي في وسط البلد بعد أن أنهي نوبتجيتي .. كان لا بد وأن أبعدها عن مكان عملي .. وبالرغم من هذا ظلت روحها تجثم على جو المكان مخلفة شعورا كريها ومقلقا في صدري.

وأخيرا انتهت النوبتجية الطويلة ..

كنت محمر العينين وكل خلية في جسدي تئن من التعب .. لكنني ما كنت لأستطيع الراحة قبل أن أطوي هذه الصفحة من حياتي .. ولا بد أن أصل معها إلى مفاوضة ترضي الطرفين.

كانت تنتظرني في المكان المتفق عليه وهي تمتص قطعة "إكلير" .. قدمت لي واحدة .. فأخذتها في صمت دون أن أبدي الدهشة من تنازلها عن قطعة من حلواها المفضلة .. ووضعتها في جيبي .. فقالت وهي تهم بالسير:

- هل تمانع أن نجلس في نفس المكان ..

هززت رأسي بمعنى أنني لا أمانع ..

حاولت أن تراوغني بممارسة بعض ألاعيب الأنثى لكنني لم أمنحها الفرصة .. طلبت منها أن تدخل في الموضوع مباشرة ..

كانت قد طلبت مني ونحن في المستشفى أن أجري لها جراحة لترقيع غشاء البكارة .. كان طلبها مفاجئا لي .. لدرجة أن قرص مخي الصلب توقف عن الدوران فجأة، فلم أستطع الرد عليها .. لذا فقد طلبت منها أن نواصل الحوار بعد أن أنهي عملي .. وها نحن نواصل حوارنا الممتع!

أخبرتها أن هذه العملية تحتاج إلى شخص متخصص .. لا لطبيب في مرحلة الإمتياز .. فقالت في ثقة:

- لا شك أن لديك الكثير من الأصدقاء المتخصصين ..

وسحبت نفسا طويلا قبل أن تقول:

- تقدم لي منذ فترة عريس "لقطة" .. ولكنه من أسرة محافظة جدا .. ومسألة عذرية البنت هذه بالنسبة له ولأسرته شيء أساسي.

حاولت أن أبدو هادئا مثلها وأنا أقول:

- لم أتصور أن تكوني منافقة وغشاشة إلى هذه الدرجة .. أين ذهبت آرائك حول نفاق المجتمع واختصاره للأنثى في غشاء بكارتها الذي لا يثبت شرف البنت أو ينفيه! .. كنت تدعين التفتح حتى اتضح لي أنك منافقة مثل مجتمعك!

قالت وهي تضحك ضحكة ماجنة:

- بس بذمتك .. مش أنا أحلى وأطعم منافقة قابلتها في حياتك.

تجاوزت دعابتها:

- واذا رفضت أن أساعدك في خطتك الدنيئة لخداع خطيبك.

اكتست ملامحها بلمسة الشراسة مجددا:

- عندها ستكون أنت الخاسر.

أعقبت عبارتها بأن أخرجت المحمول من حقيبتها .. عبثت أصابعها بأزراره .. قبل أن ينبعث منه صوت مألوف لي .. هو صوتي! .... كان "صوتي" يقول: "أنا آسف يا بثينة .. الخطأ خطأي أنا .. ما كان ينبغي أن أستغل نوبة

الضعف التي تمرين بها .. لينتهي بك الحال في شقتي .. بين أحضاني .. أرجوك أن تهدأي يا عزيزتي"....!!

لم أستطع أن أتمالك نفسي .. انتزعت المحمول من يدها .. وقمت بمسح الملف الصوتي .. فقالت بابتسامة مستفزة وهي تسترد المحمول:

- لست غبية حتى لا أترك نسخة من الملف على جهاز الكمبيوتر.

صحت بها غير عابيء برواد المكان:

- هذا التسجيل مفبرك .. لقد قمت بعمل "مونتاج" للحوار الذي دار بيننا بحيث يبدو وكأنني أعترف بتحريضك على الفسق!

ولوحت بسبابتي أمام وجهها:

- وأنا أحذرك من مغبة استخدامه.

- أنا التي أحذرك من عاقبة استخدامه .. زيارة واحدة فقط لعيادة الطواريء .. وينتقل هذا الملف عبر "البلوتوث" إلى محمول "حكمت" ممرضة الطواريء، والتي يتقافز الفضول في عينيها كلما رأتني متسائلة عن طبيعة علاقتي بك .. بعدها سينتقل الملف إلى عشرات بل مئات الممرضات .. بل وربما أطباء القصر أيضا .. ليعرف الجميع من هو الدكتور يوسف على حقيقته .. ولا تنس صورنا الرائعة التي تشي بمدى تقاربنا .... يا حبيبي ..

قالت العبارة الأخيرة بتهكم واضح .. أطلقت ضحكة ماجنة أخرى، قبل أن تقول بنبرة واثقة:

- إهدأ الآن ودعنا نتفاهم ..

قلت وأنا اعتصر قبضتي من شدة الغضب:

- كل هذه الخسة والقذارة تصدر منك .. يا لي من ساذج.

- لا داعي للتطاول أكثر من هذا .. والآن أخبرني ما هي خطوات إجراء عملية الترقيع؟

سحبت نفسا عميقا محاولا أن أبث الهدوء في أطرافي .. وأشرت للنادل مفتول العضلات إياه الذي حضر على الفور .. نظرت إليه بضيق وأنا أتساءل في نفسي إن كان تصويره لنا قد تم بناء على اتفاق مسبق بيننا .. هل كان شريكا في المكيدة التي نصبتها لي بثينة؟ .. طلبت منه نبيذا أبيض غير مخلوط هذه المرة .. لعله ينفع في تهدئة أعصابي المنفلتة .. بينما طلبت هي زجاجة بيرة ذات التركيز ٨%.

هذه السافلة قد تتمادى إلى أبعد حد .. فجرأتها تؤكد أنه لا يوجد سقف لتصرفاتها .. ولا بد أن أراوغها بذكاء حتى أخرج من هذه الورطة بأقل خسارة ممكنة.

أحضر النادل ما طلبت .. لم أنتظر أن يصب في كأسي بعضا من النبيذ .. أخذت الزجاجة من يده وجرعت منها كمية كبيرة دفعة واحدة، متحملا النار التي اندلعت في حلقي وجوفي .. قلت بعد أن بدأت أتمالك أعصابي:

- ترقيع غشاء البكارة (Hymenorrhaphy) هي عملية الاسترجاع الجراحي لغشاء البكارة بعد فقدانه .. وهي تتم بخياطة التمزق الحاصل في غشاء البكارة .. ويجب أن تتم العملية بعد الممارسة الجنسية الأولى مباشرة لأن الغشاء لا يتمزق كليا بعد المرة الأولى.

وكررت الكلمتين الأخيرتين: "المرة الأولى"، مشيرا إلى أن هذا النوع من العمليات يُجرى تعاضدا مع الفتيات العفيفات اللاتي تم اغتصابهن .. وليس لمن اعتادت ممارسة الجنس مثلها مثل الساقطات وربيبات الكباريهات.

واصلت كلامي بنبرة اختلطت فيها القسوة بالتهكم:

- وهذه العملية بالطبع لا تصلح في حالتك أيتها العفيفة!

فاجأتني بردها:

- أعرف هذا .. ولكنني قرأت على الإنترنت أن هناك طريقة أخرى لترقيع الغشاء بوضع كبسولة من الجيلاتين تُفرز عند تمزقها مادة صناعية تشبه الدم .. هل هذا صحيح؟

جرعت جرعة أخرى من النبيذ وأنا ألعن اليوم الذي رأيتها فيه .. هذه الملعونة تغلق بذكائها باب المناورة .. لن أجازف بالكذب أو المداراة في هذه النقطة، فهي بالتأكيد قد قرأت تلك المعلومات على الشبكة فعلا .. أو لعلها سألت أحد الأطباء من أصحاب الذمم الفاسدة.

قلت وأنا أنظر مباشرة في عينيها:

- هذه العملية لا تُجرى إلا قبل الزواج بيومين أو ثلاثة .. لأن الكبسولة تبدأ في الذوبان لو طالت المدة عن ذلك .. ولأكون صريحا معك .. هذه العملية ليست مضمونة وغالبا ما يكتشف الزوج الخدعة.

جرعة أخرى من النبيذ اللاذع، قبل أن أواصل:

- هناك نوع ثالث من عمليات ترقيع الغشاء، يتم باستخدام جزء من جدار المهبل، مع تغذيته الدموية، لعمل غشاء بكارة جديد .. وتنصح الفتاة بعدم ممارسة الجنس قبل مرور ثلاثة أشهر من إجراء العملية .. وهذا النوع من العمليات لا يتبع طبيب النساء عادة .. بل يتم إجراءه غالبا بمراكز جراحة التجميل .. خاصة في الدول المتقدمة مثل الولايات المتحدة وأوروبا واليابان.

وأضفت ساخرا:

- هذا على اعتبار أن الفتاة التي تحصل على "عذرية" جراحية، هي فتاة لا تكذب ولكنها تتجمل!

قالت متجاوزة عبارتي الساخرة:

- وأنت بالتأكيد ترشح لي النوع الأخير .. فهو الأنسب لحالتي على ما أظن.

- ولكن هذه العملية مكلفة للغاية .. هذا بالإضافة إلى أن إجرائها نادر جدا في مصر .. ولن تجدي من يرضى القيام بها بسهولة .. فمعظم جراحي التجميل لا يورطون أنفسهم في مثل تلك العمليات سواء لأسباب فنية أو لأسباب اجتماعية.

طبعا لم يكن ما قلته هذا صحيحا .. فالعملية تُجرى بكثرة لدرجة أن بعض جراحي التجميل - من أصحاب الذمم الفاسدة - أصبح متخصصا فقط في مثل تلك العمليات، التي تُغرق المجتمع في مستنقع الغش.

قالت ببرود مستفز:

- هذه مشكلتك لا مشكلتي ..

كدت أتلفظ بسبة بذيئة لكنني حبستها بداخلي .. في حين واصلت هي في ثقة:

- لا شك أن الجراح الذي سيجريها سيتعاطف معك عندما تخبره أنني قريبتك .. عندها لن يحملك سوى تكاليف فتح غرفة العمليات .. فالأطباء يجاملون بعضهم كما أعلم.

لذت بالصمت مفكرا .. كيف أتصرف وتلك الأفعى لديها من الحيلة والذكاء الفطري ما يجعل التحايل عليها شبه مستحيل .. ووجدتني أنهض استعدادا للمغادرة.

- اتركي لي فرصة للتفكير ..

- انتظر ردك غدا ..

وانصرفتُ بعد أن ألقيت أمامها بثمن ما شربت بطريقة أردتها أن تبدو مهينة.

* * *

وفي اليوم التالي .. التقينا في ميدان "سانت فاتيما" بمصر الجديدة .. فعيادة الطبيب تقع خلف "كنيسة الحمرا" مباشرة .. مشينا صامتين حتى توقفنا أمام البناية المنشودة .. تطلعت هي إلى اللافتة الضخمة لتقرأ الإسم: "دكتور إسماعيل أيوب .. استشاري جراحة التجميل" .. وهمت بمواصلة السير باتجاه مدخل العمارة .. أمسكتها من ذراعها لأوقفها قائلا:

- العيادة في الدور الأرضي .. ادخلي وحدك .. وسأنتظرك أنا هنا.

نظرت إليّ نظرة طويلة كأنما تحاول أن تقرأ ما بداخلي.

- السكيرتيرة لديها خبر بموعدك.

هزت رأسها في هدوء .. وواصلت سيرها نحو مدخل العمارة وأنا أتابعها حتى غابت عن عيني .. أخرجتُ علبة السجائر، لأسحب واحدة منها .. هذه هي المرة الأولى التي أدخن فيها في العلن .. فلم أدخن من قبل خارج غرفتي .. لم يحن وقت إعلان هذا بعد.

وتذكرت لقائي أمس بأحد زملائي الذي تربطه صلة قرابة بالدكتور إسماعيل أيوب .. كنت قد قررت اللجوء إليه ليساعدني في هذه الورطة .. فاتصلت به بعد أن تركت بثينة تواصل شرب البيرة في البار .. كان موجودا في قصر العيني وعلى وشك مغادرته .. فأخبرته أنني سأنتظره في محطة مترو السيدة زينب .. والتقينا .. ورويت له ما حدث بيني وبين تلك الأفعى "بثينة" .. وطال جلوسنا على كراسي المحطة ونحن نتحاور بصوت أقرب إلى الهمس .. قلبنا المسألة على كل الوجوه .. حتى انتهينا إلى طريقة ربما تخلصني من مطاردة بثينة.

أشعلت سيجارة أخرى من السيجارة التي أوشكت أن تنطفيء .. ونظرت في ساعتي .. مضت ربع ساعة على وجود بثينة بالداخل.

تراه أخبرها بما اتفقنا عليه .. ترى كيف تقبلت بثينة الأمر؟ .. أخشى أن تروغه بدهائها فيزيد هو بسذاجته الطين "بلة" عن غير قصد .. كنا قد اتفقنا مع الدكتور إسماعيل أن يخبرها أن جدار الرحم لديها ملتهب بشدة .. فالرحم بعد فض غشاء البكارة يكون ضيقا .. وتكون عضلاته مشدودة بشدة .. وهذا يؤدي إلى حدوث التهابات مع عملية الإيلاج المتكررة .. وهذه الإلتهابات تعوق إجراء الجراحة .. بعدها سيصف لها مضادا للإلتهابات وباسطا للعضلات .. وهذا لن يقدم أو يؤخر في مسألة ضيق الرحم لأن عضلاته لا تتبع الجهاز العضلي الهيكلي الذي يستجيب لتلك النوعية من الأدوية .. هي فقط محاولة لحبكة الخطة حتى تنطلي عليها .. وفي النهاية سينصحها بعدم ممارسة الجنس في الفترة الحالية حتى تنتهي الإلتهابات تماما .. وهذه العبارة المتعمدة تخفي ورائها رسالة مستفزة تقول: "توقفي قليلا عن ممارسة الرذيلة أيتها الساقطة!".

كنت أنظر إلى مدخل العمارة بترقب .. فالمفترض ألا يستغرق الأمر كل هذا الوقت .. وأخيرا ظهرت ماشية نحوي في خيلاء كأنما هي الأميرة "ديانا" .. قالت كأنما كانت تقرأ أفكاري:

- عذرا على التأخير .. فقد كنت أعدل هندامي ومكياجي في التواليت.

- ألم تلتق بالدكتور إسماعيل؟

- لا .. لم ألتق به.

فاجأتني الإجابة .. وظننت أنها حيلة منها للمراوغة .. قالت وقد بدأت تسير في نفس الاتجاه الذي أتينا منه:

- عندما دخلت العيادة وجدتها فارغة .. وهذا يتنافى مع كون الدكتور إسماعيل جراحا شهيرا كما أخبرتني .. سألت السكيرتيرة عن مواعيد العيادة فأخبرتني أنها من السابعة للعاشرة .. والساعة الآن السادسة .. أي أنك رتبت لي موعدا قبل موعد العيادة الرسمي بأكثر من ساعة .. ولا أعرف لماذا أثار هذا قلقي .. لقد اشتممت رائحة خطة ما في جو العيادة.

واصلتْ وهي تنظر في عيني:

- بل إنه من الغباء ألا أفترض أنك قد اتفقت مع هذا الطبيب على أن يخبرني أن رحمي لا يصلح لإجراء تلك العملية .. ويمكنه بسهولة أن يختلق أي سبب طبي لينطلي علي، لجهلي بالأمور الطبية .. هذا بالإضافة إلى مخاطر التخدير الكلي الذي قرأت كثيرا في الصحف عما يؤدي إليه من مصائب أحيانا .. وأنا لم يسبق لي إجراء جراحة تحت التخدير الكلي من قبل .. لذا فقد أخبرت السكيرتيرة أنني سأدخل التواليت قبل أن ألتقي بالطبيب .. ووقفت أمام المرآة وغرقت في التفكير .. ووصلت في النهاية إلى حل رائع لمشكلتي .. وهو غير مكلف على الإطلاق.

حثتها نظرة عيني المتلهفة على المواصلة .. قالت:

- شهادة من أستاذ أمراض النساء بقصر العيني تقول إنني مولودة بدون غشاء بكارة كعيب خلقي .. وبهذا أستطيع أن أدبّ إصبعي في عين من يتهمني بأنني لم أحافظ على شرفي!

ووجدتني أسألها ساخرا وأنا استعيد تفاصيل الليلة التي قضيناها في شقتي:

- حتى لو انطلتْ خطتك هذه على العريس المغفل .. فإنه سيكتشف ليلة الدخلة أن لك خبرة مذهلة في أمور الجنس .. وهذا قد يجعله يشك في صحة تلك الشهادة.

ابتسمت في برود:

- لا تقلق .. ساعتها هاعمل نفسي مكسوفة .. وسأتركه هو ليوجهني ويحركني مثل العروسة الماريونيت .. وزيادة في حبكة اللعبة سأدعي أنني أتألم بسبب ضيق الرحم في البداية .. وهذا سيمنحه الطمأنينة إلى أنها المرة الأولى لي .. أنا فاهمة الموقف كويس!

* * *

ونفذتُ ما طلبته مني تلك الأفعى ..

كان هذا الحل في رأيي أقل تكلفة بالنسبة لي من سابقه .. لكنه من زاوية أخرى يورطني أكثر في المشكلة .. فقد أصر طبيب النساء والتوليد أن أوقع أنا باسمه بدلا منه حتى يستطيع الطعن بالتزوير إذا تأزمت الأمور ووصلت إلى الجهات الرسمية .. وكنت مضطرا لقبول هذا الشرط حتى تتوقف تلك الأفعى عن مطاردتي وإثارة الشبهات حولي في المستشفى.

بدأت أدخن بشراهة في الأيام التالية .. في البيت وفي المستشفى .. وسط دهشة الجميع .. فقد كنت دائما أحافظ على صورة الشاب المثالي الملتزم في كل شيء حتى في أمور بسيطة مثل التدخين الذي انتشر بشدة في السنين الأخيرة حتى بين طلبة المدارس .. ويبدو أن ما حدث لي قد أفقدني

مبالاتي إلى حد كبير .. فلم أعد اهتم بنظرات الدهشة المطلة من العيون.

كنت أهم بمغادرة القصر .. حين رأيت مها تعبر البوابة .. التقت عينانا .. كنت قد حاولت أن أتصل بها هاتفيا أكثر من مرة لأدعوها للحديث في كافتيريا أعضاء هيئة التدريس ونحن نرتشف كوبي الشاي من يدي عم "مصطفى" صاحب الابتسامة الودودة .. لكنها كانت تصدني في كل مرة .. بل وبعنف إذا زاد إلحاحي .. حتى بدأتُ أنصرف عنها .. وقررتُ أن أتركها حتى تهدأ تماما .. بعدها قد يكون لنا حوار طويل.

عدت إلى البيت وقد تملكتني حالة من الملل .. أخرجت علبة سجائري .. أشعلت سيجارة وأطلت النفس الأول إلى أقصى استطاعتي .. قبل أن أنفثه في تنهيدة طويلة .. طويلة .. ثم فتحت "اللاب توب" الذي كان متروكا على وضع الاستعداد من الأمس.

ألج عالم الفيس بوك الذي بدأ يستولي عليّ منذ أن انفصلت عني مها.

لي ابن عم مهندس يرفض بشدة أن يكون له حسابا (account) على الفيس بوك .. كان مقتنعا أن الفيس بوك مهما حدث به من تواصل وتفاعل بين أعضاءه، سيظل في النهاية مضيعة للوقت .. فهو في النهاية عالم افتراضي .. وليس عالما حقيقيا .. وقد لاحظ أن عددا من زملاءه وأصدقاءه قد بدأوا ينحسرون تدريجيا من عالم الواقع وتركوا أنفسهم لتبتلعهم دوامة الفيس بوك .. أي إن هذا العالم السايبري الذي ليس له وجود فعليّ قد بدأ يقتطع من حياتهم الواقعية لحسابه .. وهي من وجهة نظره مشكلة كبيرة .. فهي

ستنشيء جيلا غير قادر على التفاعل من مجتمعه الحقيقي طالما ظل منخرطا في هذا المجتمع الوهمي.

وأجدني أميل لتأييد وجهة نظره .. التي تأكدت من حواراتي "الفيس بوكيّة" .. فقد كنت من قبل أكتب بعض الخواطر وأضعها على صفحة الفيس بوك بشكل شبه منتظم قبل أن تأخذني دوامة الإمتياز .. وذات مرة دخلت في "دردشة" مع إحدى صديقات الفيس بوك، التي لا أستطيع أن أجزم حتى الآن إن كانت فعلا فتاة .. كان اسمها: "سَمَر" .. كانت تعتقد من كلامي وردودي أنني شخصية قوية ولها حضور .. وكانت كذلك معجبة بكتاباتي .. لدرجة أنها طلبتْ ذات مرة أن تلتقي بي لتتعرف أكثر على شخصيتي المتميزة من وجهة نظرها .. كانت تتوقع لي أن أصبح على حد قولها كاتبا كبيرا. وكنت مترددا في الموافقة، فقد خشيت أن اكتشف أنني كنت ضحية أحد مقالب الفيس بوك .. ووجدتني أمازحها قائلا عبر سطور "الشات": "بس خدي بالك يا سمر .. أنا في الواقع خجول شوية .. بصراحة أنا أكثر خجلا مما تتصوري في أي شاب!! .. أنا الآن أتسلح بشجاعة الفيس بوك .. وهي شجاعة من ورق كما تعلمين" .. وهذه هي الحقيقة .. الفيس بوك يمنحني القدرة على التواصل ويظهرني في صورة الشخصية القوية المؤثرة .. في حين أنني في الحقيقة شخصية مترددة وقلوقة وأحسب ألف حساب لوجود الناس!

لم يعد لي الآن سوى عالم الفيس بوك الهش المزيف .. عالم بعيد كل البعد عن الواقعية .. سأترك نفسي ليمتصني عالم الفيس بوك حتى أذوب بداخله تماما فلا يعود لي وجود في عالم الواقع .. أو أصبح مجرد ظل باهت لإنسان.

لا أذكر بالضبط كم استمر وجودي على الشبكة العنكبوتية .. كنت كالذي غاب عقله .. ولم افق إلا عندما انبثق ذلك الإخطار (notification) من الزاوية اليسرى السفلية من صفحتي .. كان الإخطار ينوه إلى أن أحد أصدقاء الفيس بوك ـ واسمه هشام ـ قد تغيرت حالته من العزوبية إلى الإرتباط .. ضغطت فوق الرابط الملحق بالإخطار .. فانبثقت صفحة جديدة تحمل صورة الشخص الذي ارتبط حديثا .. لم تكن ملامحه غريبة لكنني وجدت صعوبة في تذكره .. ثم فجأة تذكرته .. هذا "هشام" .. أخو "تامر أبو الفتوح" صديقي من أيام الثانوية العامة .. مرت مدة طويلة منذ آخر لقاء لنا .. ولعل "هشام" قد وجد أنني ضمن قائمة أصدقاء أخيه فأضافني إلى قائمة أصدقاءه على الفيس بوك .. هذا يحدث كثيرا .. فقائمة أصدقائي الآن على سبيل المثال قد تجاوزت الستمائة صديق .. لكنني لا أعرف منهم فعليا أكثر من خمسين نفراً!

فكرت في ترك تعليق مجامل بمناسبة ارتباطه .. وبيّتُ النية للاتصال بصديقي "تامر" لوصل حبل الود المقطوع منذ فترة طويلة .. وقبل أن أضع التعليق وجدتني مدفوعا بالفضول للإطلاع على صور الخطوبة .. فضغطت أيقونة الصور في أعلى صفحته .. لانتقل إلى صفحة أخرى بها مجموعة من الألبومات .. اخترت منها الألبوم الذي كتب إلى جواره "أنا وهي .. حب إلى الأبد" .. وابتسمت لرومانسيته التي يغرق فيها معظم شباب الفيس بوك .. ظهرت أمامي علامة "جاري التحميل" .. انتظرت حتى ظهرت أمامي مجموعة من الصور التي كانت بالنسبة لي مفاجأة صاعقة ..

فالعروس التي ظهرت في الصورة متأبطة ذراع هشام .. لم تكن سوى .... بثينة!

* * *

لأول مرة أرى أن للفيس فوك فائدة!

ودون أن أمهل نفسي لحظة للتفكير، وجدتني أرسل رسالة لـ "تامر" .. فهذا حقه علي .. أن أنقذ أخيه من براثن هذه الفتاة .. رويت له ما أعرفه عن خطيبة أخيه المخادعة ... ورجوته أن ينصح أخاه بالابتعاد عنها قبل أن تلتف حوله كما تلتف الأفعى حول ضحيتها .. لتضخ سمها في عروقه.

ترددت قليلا قبل أن أضغط أيقونة الموافقة النهائية للإرسال .. لكنني حسمت ترددي في النهاية.

راودني شعور بأنني كنت كمن ينتظر الفرصة للانتقام من بثينة .. ثم جاءته الفرصة على طبق من ذهب .. ولم أفكر للحظة في وقع هذه الرسالة على تامر ولا على أخيه الذي ربما كان متعلقا ببثينة .. ولم أفكر في رد فعلها عندما تعرف أنني من كشف سرها .. كان ينبغي أن أتروى قليلا وألا أندفع كالعادة في مسألة تتعلق بأمور الشرف والزواج.

ولكن الساكت عن الحق شيطان أخرس .. وكان لا بد وأن أتكلم.

ووجدتني ابتسم ساخرا من شجاعتي المزيفة .. فلا أظنني كنت سأقول لتامر - وجها لوجه - نصف ما قلته له في رسالتي .. حقا الفيس بوك يمنحني الشجاعة لأقول ما أريد .. لكنها شجاعة من ورق .. شجاعة هشة لا ترقى لمعالجة الأحداث في عالم الواقع!

لم يصلني رد على سالتي .. لكن بعد بضعة أيام .. وأثناء وجودي على الشبكة .. وصلني إخطار على الفيس بوك بأن حالة هشام قد تغيرت من "الارتباط" إلى "الوحدة والقلب المكسور" .. ترى هل أحبها حقا أم أنه يحاول أن يعيش حالة المطعون في قلبه .. لم أعد أثق في أي شيء يبثه الفيس بوك .. فإذا كان الكذب والإدعاء قد أصبحا هما العملة الرائجة في عالم الواقع .. فما بالك بعالم وهمي مثل الفيس بوك .. لا شك أن الكذب والإدعاء فيه أسهل بكثير!

كانت حياتي قد عادت لوتيرتها السابقة .. بعد أن كفت بثينة عن ملاحقتي نهائيا .. إلى أن فوجئت في يوم بتلك السيارة المندفعة باتجاهي وأنا في طريقي إلى محطة المترو بعد أن انتهت نوبتجيتي .. كان سائقها قد انحرف فجأة عن الطريق فصعدت السيارة بعنف فوق الرصيف متجهة نحوي مباشرة .. مما جعله يوشك أن يدهسني .. وللحظة أصبت بالشلل والسيارة تقطع المسافة الفاصلة بيننا بتلك السرعة الهائلة .. وفجأة وجدتني أطير في الهواء من أثر الصدمة .. وأغمضت عيني مستسلما لمصيري .. ثم فتحت عيني لأجد نفسي وقد سقطت على الرصيف وإلى جواري شاب أسمر البشرة مفتول العضلات .. كانت دماغي تلف من أثر السقطة لكنني أدركت أنني لم أصب بأذى .. لقد أنقذني هذا الشاب في اللحظة الأخيرة قبل أن تدهسني السيارة.

نقلت بصري بين ذلك الشاب الشهم الذي بدت ملامحه مألوفة .. وبين تلك السيارة التي كانت قد واصلت طريقها فوق الرصيف لتصطدم في النهاية بعمود الإنارة .. ولولا ما فعله ذلك الشاب لكنت الآن أرقد تحت عجلات السيارة!

حاول السائق أن يعود بالسيارة إلى الوراء .. لكن الناس تحلقوا حول السيارة في فضول .. مما أجهض محاولة الهرب في بدايتها .. ومنحني هذا فرصة لكي أتفحص السائق الذي انحفرت ملامحه في ذهني خاصة تلك الندبة التي تتوسط خده الأيسر .. كان شابا في العشرينات من عمره .. له لحية طويلة تخفي خلفها عنقا برزت عروقه من فرط التوتر .. عيناه واسعتان قويتان مؤثرتان كأنما هما عينا "راسبوتين" .. والتقت عينانا .. كان ينظر لي والشرر يتطاير من عينيه .. مما دفعني للشك أنها لم تكن حادثة .. بل كان ما حدث مقصودا لكن تدخل ذلك الشاب أفسد خطته.

ووصلتني همهمات الناس المحيطة بالسيارة .. "سائق ثمل" .. "متهور" .. "يلعن أبو اللي علمك السواقة .. هي الشوارع ناقصة" .. وكدت أصرخ فيهم أنه لم يكن ثملا .. بل كان يحاول أن يصدمني .. لكنني ابتلعت لساني عندما رأيت أمين الشرطة يقترب من بعيد .. فهو سيأخذه على أية حال لتدميره عامود الإنارة الذي يعتبر ملكية عامة وكذلك لتعريضه حياة الناس للخطر .. فلا داعي لأن أورط نفسي في الأحداث.

طلب منه أمين الشرطة أن يطلعه على رخصة السيارة .. ليفاجأ أنها ليست سيارته .. فقال الأمين بلكنة ساخرة: "وكمان مش عربيتك .. بطاقتك فين" .. فأخرج الشاب البطاقة من حافظته .. ليتطلع الأمين إليها لحظات .. قبل أن يمسك بتلابيبه قائلا في خشونة: "انت هتشرفنا شوية" .. واستدعى "البوكس" عن طريق جهازه اللاسلكي .. كنت أراقبه في توتر وهو يصعد إلى البوكس في هدوء شديد كأنه ذاهب إلى جنينة الأورمان لا إلى قسم البوليس .. وقبل أن

يتحرك البوكس مبتعدا .. منحني ذلك الشاب نظرة راسبوتينية ممتلئة بالتهديد والوعيد .. ووجدتني أرسم صورة مختلفة للأحداث التي جرت منذ قليل .. صورة تنتهي بي على أحد أسرة قصر العيني وقد التفت الضمادات والجبائر حول كل جسدي .. ماذا لو كان فعلها .. وماذا لو استطاع فعلها في المستقبل؟!

ثم وجدتني أنفض تلك الأفكار عن رأسي ..

هل أنا واهم .. لعله كان ثملا فعلا ولم يكن يقصد أن يصدمني .. لعلني أصبت فعلا بالهلوسة .. أو لعل هذه هي أعراض مرض الفيس بوك الذي امتصني إلى داخله فأصبحت غير قادر على التواصل مع العالم الحقيقي .. بل وأصبحت أفسر كل شيء من منظور المريض المضطهد .. لعلها بداية حياتي مع جرثومة البارانويا اللعينة!

أخرجني من خواطري صوت ذلك الشاب الشهم الذي لم أشكره حتى الآن:

- ألا تتذكرني؟

نظرت إلى وجهه متفحصا وأنا أشعر أنني رأيته من قبل .. لكن عقلي كان مثقلا بالأفكار فلم أستطع أن أتذكره.

- أنا "حامد" .. الشاب المجند الذي كاد يفقد ....

ونظر إلى الأسفل في حياء .. وتذكرته .. إنه ذلك الشاب الذي قاده حرمانه الجنسي إلى إشباع غريزته بوسيلة كادت تودي برجولته نهائيا .. لكن ربنا ستر.

ووجدتني أشد على يده وأشكره بحرارة على إنقاذه لي .. ثم سألته عن أحواله .. كانت حالته النفسية جيدة خاصة بعد أن أنهى فترة التجنيد .. بل وعثر على عمل جيد مكنه من الارتباط بابنة عمه .. وأصر حامد على أن يدعوني لطبق

كشري معتبر في أحد المحلات المتاخمة لقصر العيني .. فلم أرفض دعوته .. وبعد أن امتلأت بطوننا، منحته رقم هاتفي المحمول قائلا: "لا تتردد في الاتصال بي اذا احتجتني".

بعدها افترقنا وأنا أتساءل في حيرة عن القدر الذي رتب وجود هذا الشاب في تلك اللحظة لينقذني من حادثة ربما أدت بي إلى الموت أو العجز على أقل تقدير .. وعدت أواصل طريقي إلى محطة المترو .. وظلت الحيرة ترافقني!

* * *

في اليوم التالي جاءتني ممرضة من ممرضات الأقسام الداخلية لتهمس في أذني بأن مريضة ترقد بين الحياة والموت في وحدة الرعاية .. تريد أن تراني حالا!

وانتفض قلبي من المفاجأة عندما سمعت اسم المريضة .. ووجدتني أهرع إلى الرعاية المركزة .. والممرضة تلهث حتى تلحق بي .. وعند مدخل الجزء الخاص بالسيدات توقفت .. ومسحت عيناي الأسرّة كلها حتى توقفت عند إحداها .. عند هذه اللحظة كانت الممرضة قد لحقت بي .. وهمت أن تقول شيئا لكنني استوقفتها بإشارة من يدي .. وتحركت قدماي ببطء ناحية السرير المنشود .. وعندما وصلت إليه كانت بثينة ترقد عليه شبه غائبة عن الوعي .. وكانت الأسلاك والخراطيم تمتد من وإلى جسدها لتوصلها بمجموعة من الأجهزة والمحاليل وخلافه .. ما الذي حدث لها .. كانت الملاءة تغطي جسدها فلم أستطع أن أخمن .. فتحتْ عينيها في هذه اللحظة .. قالت في صوت خافت جدا كأنما يؤلمها الكلام:

- الآن لا خوف عليك يا عزيزي، فأنا على وشك الرحيل!

وتقلصتْ ملامح وجهها من الألم .. فاغتصبتُ ابتسامة شاحبة لأطمئنها:
ـ ما الذي حدث لك؟ .. هل أدمنت دخول المستشفيات؟!
ابتلعت ريقها الجاف .. قالت متجاوزة دعابتي:
ـ أريد شربة ماء .. هل يرضيك أن أموت وأنا عطشانة؟
لا بد وأن حالتها تحول دون موافقة أخصائي الرعاية على هذا .. بللتُ قطعة من القطن ومررتها على شفتيها لترطبهما .. ثم طلبت من الممرضة أن تحضر لي ملفها.
فتحت صفحة الأعراض والتشخيص لأكتشف أنها تلقت عدة طعنات قاتلة في بطنها وصدرها نقلت على إثرها إلى هنا .. وظلت في حجرة العمليات أكثر من اثنتي عشرة ساعة .. وهي الآن بين الحياة والموت .. ملت على أذن الممرضة وسألتها هامسا عن الفاعل .. فقد كانت الهواجس تتقافز في ذهني منذ جاءتني الممرضة في الطوارىء لتخبرني أن هناك من تريد رؤيتي .. كنت أشعر كمن عمل "عملة" ويرى الآن نتيجة تلك العملة .. وأكدت لي الممرضة صحة هواجسي.
لقد كان الفاعل كما توقعت تماما .....
* * *

أسير نحو محطة المترو ... نفس الطريق الذي سرت فيه أول مرة مع بثينة قبل أن نستقل المترو إلى وسط البلد .. تركت النوبتجية دون أن أكلف أحدا من الزملاء بتغطيتي .. لا بد وأن النائب يملأ عيادة الطوارىء الآن صياحا ويصب لعناته عليّ بسبب هذا التسيب الذي أنا بطله!
كنت متأثرا جدا بما حدث ...

فقد لفظت بثينة أنفاسها الأخيرة بين ذراعيّ .. وكان الطريق إلى المترو يذكرني بها، مما عمق إحساسي بالشجن.

ووجدتني أستعيد كل كلمة قالتها بثينة قبل أن تتخلى عنها أنفاس الحياة .. كانت تعاني سكرات الموت .. واختلطت كلماتها بالهذيان المتوقع في تلك الحالات.

في البداية طلبت مني أن أحكي لها قصة سندريلا .. ثم سألتني أن أنظر إلى قدميها لأرى إن كان حجمهما مناسبا لحذاء سندريلا أم لا .. ثم صمتت قليلا وأغمضت عينيها .. كأنما غرقت في حالة من السبات العميق .. ثم فتحت عينيها فجأة .. ونظرت حولها كأنما تخشى أن يكون قد فاتها شيء .. قبل أن تقول: "لماذا يكون الأمير من نصيب سندريلا دوما؟ .. هي ليست أفضل مني .. أنا التي سأفوز بالأمير هذه المرة".

كان هذيانها يجعلني أتألم لأجلها .. بالرغم من كل ما فعلته بي!

واصلت بثينة حديثها المفعم بالألم والمرارة:

- آه يا دكتور مهند .. كم أوحشتني .. لم لا تأت لزيارتي .. لم لا تأخذني خلفك فوق حصانك المجنح ليطير بنا فوق السحاب .. ويأخذنا إلى مدائن الحب والعشق والهوى.

ونظرت لي بعينين يطل منهما الحنين للماضي:

- أنا متأكدة من أنه سيأتي .. أكيد هصعب عليه .. لن يتركني وحدي في حالة كهذه.

مددت يدي واحتضنت كفها البارد .. كانت قواها خائرة تماما فلم تستطع حتى أن تغلق أصابعها على يدي.

قالت في رجاء:

- لعله قد عثر على الحذاء وذهب به إلى سندريلا .. أرجوك أخبره ألا يفعل .. فهي لا تحبه مثلي .. أنا التي منحته كل شيء .. ولم أبخل عليه حتى بـ "عذريتي" .. لكن سندريلا لم تمنحه أي شيء .. أرجوك تحدث إليه لعله يصغي.

وأغلقت عينيها لحظة قبل أن يرتجف جسدها المنهك ..

- أشعر بالبرد ... أطرافي تكاد تتجمد ..

ثم راحت تدندن الأغنية الشهيرة:

- أشعر بالبرد .. أشعر بالبرد .. أشعر بالبرد فغطيني .. وظلي قربي .. غني لي .. غني لي .. فأنا من بدء التكوين .. أبحث عن حب يأخذني .. لحدود الشمس ويرميني.

وارتجفتْ مرة أخرى .. فطلبتْ مني أن أمسك بيدها .. ورغما عني اغروقت عيناي .. فأنا ممسك بيدها بالفعل لكنها لا تشعر .. لقد توقفت أعصابها الطرفية عن نقل الإشارات العصبية .. إنها موشكة على مرحلة الصدمة العصبية التي تسبق الوفاة.

هرعت لحظتها إلى أخصائي الرعاية الذي كان ممدا على السرير في غرفته الملحقة بالوحدة. كان يشاهد فيلما على "اللاب توب". بدا عليه الانزعاج لكنه رافقني إلى سرير بثينة وهو يقول بمنتهى برود الأعصاب:

- she is passing out.

وطلب من الممرضة أن تزيد جرعة المورفين (morphine) .. وأضاف وهو يعاود خطاه إلى حيث اقتحمت خلوته:

- هذا كل ما يمكنني عمله .. أن أجعلها تموت دون ألم.

قلت في نفسي: "أذاقك الله ضعف ما تعانيه من ألم أيها الطبيب البارد!".

وعدت إلى بثينة التي بدت أكثر هدوءا بعد أن توقفت خناجر الألم عن وخزها. احتضنت يدها برفق، وبيدي الأخرى ملست على جبينها وشعرها المبتل من العرق .. سألتها: "هل تشعرين بتحسن؟".

أومأت برأسها. حركت شفتيها في همس .. لم أستطع سماع ما تقول إلا بعدما قربت أذني من فمها: "أنا كنت أموت وأحيا كل يوم وأنا أتوق لأعرف حقيقة مشاعر الدكتور مهند تجاهي .. كنت أريد أن أعرف ماذا يريد مني بالضبط .. لذا فقد مكنته من رؤية صوري لأمهد له الطريق للخطوة القادمة .. فإذا كان قد أحبني حقا .. فإنه سيطلب مني أن نعيش معا للأبد .. وسيفعل المستحيل ليحقق هذا .. أما لو كان يريد أن يذوق عسلي فقط .. فإنه سيملني بعد فترة ثم يلفظني تماما من حياته. كدت أجن وأنا حائرة أي النوعين هو. ثم قررت أن أمر بالتجربة أيا كانت العاقبة، ليتضح لي في النهاية أنه من النوع الثاني. لفظني من حياته بعد أن أحببته حتى النخاع. كانت طعنته أشد إيلاما من طعنات السكين التي طعنني بها أخي، فتلك الطعنات لم تفعل شيئا سوى أن مزقت جسدي الذي سيفنى إن عاجلا أو آجلا .. أما طعنة حبيبي .. فقد قتلت روحي .. وتركتني إنسانة بلا روح.

ترى .. هل ما قالته هو الحقيقة؟ .. أم أن هذه هلوسة النزع الأخير؟!

كنت قد وصلت للمحطة .. اشتريت تذكرة ثم عبرت القضيب الدوار .. هبطت السلالم المؤدية إلى رصيف المحطة .. وسرتُ حتى آخر الرصيف .. وأنا استرجع آخر

كلمات بثينة .. طلبت مني أن أغفر لها ما فعلته معي .. وحذرتني من أخيها الذي ألح على هشام خطيبها الأخير ليخبره سبب فسخ الخطبة .. فصارحه بكل شيء .. لكنه لم يصدق شيئا مما قال .. وذهب عقله إلى الظن بأنني أنا من أفقدتها عذريتها .. ولم يترك لها الفرصة لتثبت له كلامها .. فقد انهال عليها طعنا .. وأنقذها أبوها منه بصعوبة .. فقد كان كالوحش الهائج لحظتها.

وأضافت بثينة والخوف يطل من عينيها:

- تعرف .. أنا مخفتش من السكينة اللي كان ماسكها زي ما خفت من النظرة اللي في عينيه .. دي مش ممكن تكون نظرة بني آدم .. ولما بدأت أفقد الوعي كنت مبسوطة عشان مش هشوف النظرة دي تاني.

وانكمشتْ على نفسها وقالت بصوت مرتعش:

- أنا خايفة لو نمت دلوقتي .. تزورني عيناه المتوحشتان في المنام!

احتضنتها غير عابيء بالممرضة التي كانت ترقبنا من بعيد .. ضممتها إليّ بشدة .. فاستكانت في حضني .. استكانت إلى الأبد ...

ماتت بثينة .. وعلى شفتيها ابتسامة!

ماتت فتاة الكراميل ...

لا خوف عليّ الآن يا بثينة كما قلتِ .. فأخوك لا شك سيظل خلف القضبان زمنا طويلا .. فهو من النوع الذي لا يداري جريمته طالما أنها ارتكبت تحت مسمى الحفاظ على الشرف .. ولعله قد اعترف من نفسه دون أية ضغوط أنه هو الفاعل ..... حاولت أن أتخيل منظره وهو يعترف للضابط بكل برود الدنيا أنه قتل أخته عامدا متعمدا ليتخلص من العار

الذي جلبتيه للأسرة الكريمة .. أي عار أيها اللعين .. لقد كانت أختك مصابة بداء الحب .. فهل الحب قد أصبح عارا في زمننا هذا .. ربما هي أخطأت بتفريطها في عذريتها التي لا تمثل الشرف بأي حال من الأحوال .. لكنها في النهاية مثل أية فتاة .. كانت ترنو إلى أن تعيش في ظل زوج يدفئها حضنه .. ولكن المجتمع للأسف لا يغفر الخطأ .. بل يظل يطارد صاحبته حتى يقضى عليها .. وقد كنت أنا أحد أفراد المجتمع الذي لم يرحم ضعف بثينة.

كنت قد وصلت في هذه اللحظة إلى آخر الرصيف .. حيث تكون المقاعد هناك خالية دائما .. ورميت ببصري إلى الأفق .. حيث يمتد شريط المترو إلى ما لا نهاية .. إن حيواتنا مثل شريط المترو الذي لا ترى نهايته مهما كنت قوي النظر .. وبالمثل لا يمكننا أن نعرف أين تنتهي حيواتنا وكيف.

ألقيت بجسدي على أحد المقاعد. كان المقعد باردا .. مما ذكرني ببرودة جسد بثينة قبل أن تموت.

مددتُ يدي إلى جيبي .. لتخرج ممسكة بقطعة الأكلير التي أعطتها لي في لقائنا الأخير بوسط البلد .. وقلت بصوت هامس وأنا أنظر لقضبان المترو:

"وداعا يا فتاة الكراميل" .....

انتهت

الغردقة — سبتمبر ٢٠١٠

للتواصل مع الكاتب

يمكنكم مراسلته على البريد الإلكتروني:

doctor_mostafa٧٩@hotmail.com

أو زيارة صفحة الفيس بوك المعنونة:

كتابات مصطفى عمر الفاروق